سورة الغاشية

وهي عشرون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

اعلم أن في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ مسألتين:

المسألة الأولى: ذكروا في الغاشية وجوهًا: أحدها: أنها القيامة، من قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٥] إنما سميت القيامة بهذا الاسم لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، والقيامة كذلك من وجوه: الأول: أنها تَرِد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]، والثاني: أنها تغشى الناس جميعًا من الأولين والآخرين. والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد. القول الثاني: الغاشية هي النار أي تغشى وجوه الكفرة وأهل النار، قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل القول الثالث: الغاشية أهل النار يغشونها ويقعون فيها. والأول أقرب؛ لأن على هذا التقدير يصير المعنى أن يوم القيامة يكون بعض الناس في الشقاوة، وبعضهم في السعادة.

المسألة الثانية: إنما قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ وذلك لأنه تعالى عرف رسول الله من حالها وحال الناس فيها ما لم يكن هو ولا قومه عارفًا به على التفصيل؛ لأن العقل إن دل فإنه لا يدل إلا على أن حال العصاة مخالفة لحال المطيعين، فأما كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل إليها، فلما عرفه الله تفصيل تلك الأحوال، لا جرم قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فاعلم أنه وصف لأهل الشقاوة، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفار، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة، وذلك من صفات المكلف، لكن الخشوع يظهر في الوجه فعلقه بالوجه لذلك، وهو كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وقوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة قد عراهم الخزي والهوان، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] وإنما يظهر الذل في

الوجه؛ لأنه ضد الكِبْر الذي محله الرأس والدماغ. وأما العاملة فهي التي تعمل الأعمال، ومعنى النصب الدؤوب في العمل مع التعب.

المسألة الثانية: الوجوه الممكنة في هذه الصفات الثلاثة لا تزيد على ثلاثة؛ لأنه إما أن يقال: هذه الصفات بأسرها حاصلة في الآخرة، أو هي بأسرها حاصلة في الدنيا، أو بعضها في الآخرة وبعضها في الدنيا: **أما الوجه الأول وهو أنها بأسرها حاصلة في الآخرة:** فهو أن الكفار يكونون يوم القيامة خاشعين، أي ذليلين، وذلك لأنها في الدنيا تكبرت عن عبادة الله، وعاملين لأنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال الثقيلة، على ما قال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل بحيث ترتقي عنه تارة وتغوص فيه أخرى، والتقحم في حر جهنم والوقوف عراة حفاة جياعًا عطاشًا في العرصات قبل دخول النار في يوم كان مقداره ألف سنة، وناصبين لأنهم دائمًا يكونون في ذلك العمل، قال الحسن: هذه الصفات كان يجب أن تكون حاصلة في الدنيا لأجل الله تعالى، فلما لم تكن كذلك سلَّطها الله عليهم يوم القيامة على سبيل العقاب. **وأما الوجه الثاني وهو أنها بأسرها حاصلة في الدنيا:** فقيل: هم أصحاب الصوامع من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس، والمعنى أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب، وذلك لأنهم لما اعتقدوا في الله ما لا يليق به، فكأنهم أطاعوا ذاتًا موصوفة بالصفات التي تخيلوها فهم في الحقيقة ما عبدوا الله وإنما عبدوا ذلك المتخيل الذي لا وجود له، فلا جرم لا تنفعهم تلك العبادة أصلاً وأما الوجه الثالث وهو أن بعض تلك الصفات حاصلة في الآخرة وبعضها في الدنيا ففيه وجوه: **أحدها:** أنها خاشعة في الآخرة، مع أنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة، والمعنى أنها لم تنتفع بعملها ونصبها في الدنيا، ولا يمتنع وصفهم ببعض أوصاف الآخرة، ثم يذكر بعض أوصاف الدنيا ثم يعاد ذكر الآخرة، إذا كان المعنى في ذلك مفهومًا، فكأنه تعالى قال: وجوه يوم القيامة خاشعة؛ لأنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة في غير طاعة الله، فهي إذن تصلى نارًا حامية في الآخرة. **ثانيها:** أنها خاشعة عاملة في الدنيا، ولكنها ناصبة في الآخرة، فخشوعها في الدنيا خوفها الداعي لها إلى الإعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها، وعملها هو صلاتها وصومها، ونصبها في الآخرة هو مقاساة العذاب، على ما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وقرئ (عاملةً ناصبةً) على الشتم. واعلم أنه تعالى بعد أن وصفهم بهذه الصفات الثلاثة شرح بعد ذلك كيفية مكانهم ومشربهم ومطعمهم، نعوذ بالله منها.

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

أما مكانهم فقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ يقال: صلى بالنار يصلى، أي لزمها واحترق بها، وقرئ بنصب التاء، وحجته قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقرأ أبو عمرو وعاصم

برفع التاء من أصليته النار لقوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] وقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] وصلوه مثل أصلوه، وقرأ قوم (تصلّى) بالتشديد، وقيل: المصلى عند العرب: أن يحفروا حفيرًا فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلاة أو في التنور، فلا يسمى مصلى. وقوله: ﴿حَامِيَةً﴾ أي قد أوقدت، وأحميت المدة الطويلة، فلا حر يعدل حرها، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله.

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾

وأما مشروبهم فقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ الآني: الذي قد انتهى حره من الإيناء بمعنى التأخير، وفي الحديث: (أن رجلاً أخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس، فقال له النبي ﷺ: «آنيتَ وآذيتَ»[١] ونظير هذه الآية قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] قال المفسرون: إن حرها بلغ إلى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت.

وأما مطعومهم فقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ واختلفوا في أن الضريع ما هو على وجوه: **أحدها:** قال الحسن: لا أدري ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئًا. **وثانيها:** روي عن الحسن أيضًا أنه قال: الضريع بمعنى المُضرِع، كالأليم والسميع والبديع بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع، ومعناه إلا من طعام يحملهم على أن يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرارة. **وثالثها:** أن الضريع ما يبس من الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا، فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل، قال أبو ذويب:

رَعَى الشِّبْرِقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى ... وَعَادَ ضَرِيعًا عَادَ عَنْهُ النَّحَائِصُ[٢]

جمع نحوص وهي الحائل من الإبل، وهذا قول أكثر المفسرين وأكثر أهل اللغة. **ورابعها:** قال الخليل في كتابه: ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم: هي الضريع، فكأنه تعالى وصفه بالقلة، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع. **وخامسها:** قال أبو الجوزاء: الضريع السلا. ويقرب منه ما روي عن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك. ثم قال أبو الجوزاء: وكيف يسمن

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (تخطي رقاب الناس يوم الجمعة) (١/ ٢٩٢) حديث رقم (١١١٨) من طريق بشر بن السري حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية... به، والنسائي في كتاب (الجمعة) باب (النهي عن تخطي رقاب الناس...) (٣/ ١٠٣) حديث رقم (١٣٩٩) من طريق ابن وهب قال: سمعت معاوية بن صالح... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٤٣٢) حديث رقم (٣٥٠٦) وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٨) جميعا من طريق أبي الزاهرية عن عبد الله بن يسر... به.

(٢) أبو ذؤيب الهذلي (... - نحو ٢٧ = ... - نحو ٦٤٨م) خويلد بن خالد بن محرث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى إفريقية (سنة ٢٦هـ) غازيًا، فشهد فتح إفريقية، وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان رضي الله عنه فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها، وقيل: مات بإفريقية.

من كان يأكل الشوك؟! وفي الخبر: الضريع شيء يكون في النار شبيه الشوك أمَرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة وأشد حرًّا من النار. قال القفال: والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام بيان نهاية ذلهم، وذلك لأن القوم لما أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشًا جياعًا، ثم أُلقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئًا من النبات، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميمًا لا يروي بل يشوي، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم من الجوع والعطش، كما قال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] وبيَّن أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع، نعوذ بالله منها، **وههنا سؤالات:**

السؤال الأول: قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦] وقال ههنا: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ والضريع غير الغسلين والجواب من وجهين: **الأول:** أن النار دركات، فمن أهل النار من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، لكل باب منهم جزء مقسوم. **الثاني:** يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع، ويكون ذلك كقوله: ما لي طعام إلا من الشاه، ثم يقول: ما لي طعام إلا من اللبن، ولا تناقض لأن اللبن من الشاة.

السؤال الثاني: كيف يوجد النبت في النار؟ **الجواب من وجهين: الأول:** ليس المراد أن الضريع نبت في النار يأكلونه، ولكنه ضرب مثله، أي أنهم يقتاتون بما لا يشبعهم أو يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع. **الثاني:** لمَ لا يجوز أن يقال: إن النبت يوجد في النار؟ فإنه لما لم يستبعد بقاء بدن الإنسان مع كونه لحمًا ودمًا في النار أبد الآباد، فكذا ههنا، وكذا القول في سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾

أما قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ فهو مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع، وأما المعنى ففيه ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن طعامهم ليس من جنس مطاعم الإنس، وذلك لأن هذا نوع من أنواع الشوك، والشوك مما يرعاه الإبل، وهذا النوع مما ينفر عنه الإبل، فإذن منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن. **وثانيها:** أن يكون المعنى لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع وأسمن وهو منهما بمعزل، كما تقول: (ليس لفلان ظل إلا الشمس) تريد نفي الظل على التوكيد. **وثالثها:** روي أن كفار قريش قالت: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا. فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ فلا يخلو إما أن يتعنتوا بذلك الكلام كذبًا فيردّ قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير

مسمن ولا مغنٍ من جوع. قال القاضي: يجب في كل طعامهم أن لا يغني من جوع لأن ذلك نفع ورأفة، وذلك غير جائز في العقاب.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار، أتبعه بشرح أحوال المؤمنين، فذكر وصف أهل الثواب أولاً، ثم وصف دار الثواب ثانيا:

أما وصف أهل الثواب فبأمرين: أحدهما: في ظاهرهم، وهو قوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، كقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] أو متنعمة.

قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝﴾

والثاني: في باطنهم وهو قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ وفيه تأويلان: أحدهما: أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله، لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة، كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول، ما أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت. فيثنى على عملٍ نفسه ويرضاه. والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب. وهذا أَوْلى إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه. وأما وصف دار الثواب، فاعلم أن الله تعالى وصفها بأمور سبعة:

أحدها: قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في المكان، ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في الدرجة والشرف والمنقبة، أما العلو في المكان فذاك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، قال عطاء: الدرجة مثل ما بين السماء والأرض.

وثانيها: قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ ثلاث قراءات أحدها: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب (لاغية) بالنصب، والمخاطب بهذا الخطاب يحتمل أن يكون هو النبي ﷺ وأن يكون لا تسمع يا مخاطب فيها لاغية، وهذا يفيد السماع في الخطاب، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ [الإنسان: ٢٠] وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ [الإنسان: ١٩] ويحتمل أن تكون هذه التاء عائدة إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ [الغاشية: ٨]، والمعنى لا تسمع الوجوه فيها لاغية. وثانيها: قرأ نافع بالتاء المنقوطة من فوق مرفوعة على التأنيث (لاغية) بالرفع. وثالثها: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لا يُسمع) بالياء المنقوطة من تحت مضمومة على التذكير (لاغية) بالرفع، وذلك جائز لوجهين: الأول: أن هذا الضرب من المؤنث إذا تقدم فعله وكان بين الفعل والاسم حائل حسن التذكير، قال الشاعر:

إن امرأً غَرَّهُ مِنْكُنَّ وَاحِدَةٌ ... بَعْدِي وَبَعْدَكِ فِي الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ (١)

(١) هذا البيت لمسكين الدارمي وهو: ربيعة بن عامر بن أُنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عدس بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، المعروف بمسكين الدارمي التميمي؟ - ٨٩هـ/ =

والثاني: أن المراد باللاغية اللغو، فالتأنيث على اللفظ، والتذكير على المعنى.

المسألة الثانية: لأهل اللغة في قوله: ﴿لَٰغِيَةً﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقال: لغا يلغو لغوًا ولاغية، فاللاغية واللغو شيء واحد، ويتأكد هذا الوجه بقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢]، **وثانيها:** أن يكون صفة والمعنى لا يسمع كلمة لاغية. **وثالثها:** قال الأخفش: لاغية أي كلمة ذات لغو، كما تقول: فارس ودارع لصاحب الفرس والدرع. وأما أهل التفسير فلهم وجوه: **أحدها:** أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله تعالى، وإنما نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل، وهكذا كل مجلس في الدنيا شريف مكرم فإنه يكون مبرأ عن اللغو، وكل ما كان أبلغ في هذا كان أكثر جلالة، هذا ما قرره القفال. **والثاني:** قال الزجاج لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة والثناء على الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم. **والثالث:** عن ابن عباس: يريد لا تسمع فيها كذبًا ولا بهتانًا ولا كفرًا بالله ولا شتمًا. **والرابع:** قال مقاتل: لا يسمع بعضهم من بعض الحلف عند شراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر. وأحسن الوجوه ما قرره القفال. **الخامس:** قال القاضي: اللغو ما لا فائدة فيه، فالله تعالى نفى عنهم ذلك، ويندرج فيه ما يؤذي سامعه على طريق الأَوْلى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

الصفة الثالثة للجنة: قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ قال صاحب الكشاف: يريد عيونًا في غاية الكثرة، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] قال القفال: فيها عين شراب جارية على وجه الأرض في غير أخدود، وتجري لهم كما أرادوا. قال الكلبي: لا أدري بماء أو غيره.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية في الهواء، وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم والملك، وقال خارجة بن مصعب: بلغنا أنها بعضها فوق بعض فيرتفع ما شاء الله، فإذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له، فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله. والأول أَوْلى، وإن كان الثاني أيضًا غير ممتنع لأن ذلك بما كان أعظم في سرور المكلف، قال ابن عباس: هي سرر ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ الأكواب: الكيزان التي لا عرى لها، قال قتادة:

=؟-٧٠٨م شاعر عراقي شجاع من أشراف تميم، لُقب مسكينًا لأبيات قال فيها:

أنا مسكين لمن أنكرني ولمن يعرفني جد نطق

له أخبار مع معاوية، وكان متصلاً بابنه يزيد وزياد بن أبيه، وكانت بينه وبين الفرزدق والأخطل وعبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان وشائج مودة وهجاء.

فهي دون الأباريق. وفي قوله: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ وجوه: أحدها: أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئًا فيقول: (هو ههنا موضوع) بمعنى معد. وثانيها: موضوعة على حافاة العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشرب. وثالثها: موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر، وتلذذهم بالشراب منها. ورابعها: أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر، أي هي أوساط بين الصغر والكبر، كقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦].

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ النمارق هي الوسائد في قول الجميع، واحدها نمرقة بضم النون، وزاد الفراء سماعًا عن العرب نِمرقة بكسر النون، قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى.

الصفة السابعة قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ يعني البسط والطنافس، واحدها زربية وزِربي بكسر الزاي في قول جميع أهل اللغة، وتفسير مبثوثة: مبسوطة منشورة أو مفرقة في المجالس.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسَّم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء، ووصف أحوال الفريقين، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم، لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد: أما الأول: فلأن الأجسام متساوية في الجسمية، فاختصاص كل واحد منها بالوصف الذي لأجله امتاز على الآخر - لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص وإيجاد قادر، ولما رأينا هذه الأجسام مخلوقة على وجه الإتقان والإحكام علمنا أن ذلك الصانع عالم، ولما علمنا أن ذلك الصانع لا بد وأن يكون مخالفًا لخلقه في نعت الحاجة والحدوث والإمكان، علمنا أنه غني، فهذا يدل على أن للعالم صانعًا قادرًا عالمًا غنيًّا، فوجب أن يكون في غاية الحكمة، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجًا إلى البعض، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه، بل لا بد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولاً بمهم آخر حتى يتنظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد، وذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار، فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة.

فإن قيل: فأي مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، ثم لَمَ بدأ بذكر الإبل؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن جميع المخلوقات متساوية في هذه الدلالة، وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها، وأي واحد منها ذُكر دون غيره كان هذا السؤال عائدًا، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير، وأيضًا فلعل الحكمة في ذكر هذه الأشياء التي هي غير متناسبة التنبيه

على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع، بل هو عام في الكل، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤] ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك، لا جرم ذكر الله تعالى أمورًا غير متناسبة بل متباعدة جدًا، تنبيهًا على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها - متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم، فهذا وجه حسن معقول، وعليه الاعتماد**الوجه الثاني:** وهو أن نبين ما في كل واحد من هذه الأشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر، ثم نبين أنه كيف يجانس بعضها بعضًا.

أما المقام الأول: فنقول: الإبل له خواص، منها أنه تعالى جعل الحيوان الذي يُقتنى أصنافًا شتى، فتارة يُقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليُشرب لبنه، وتارة ليَحمل الإنسان في الأسفار، وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد، إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾[النحل: ٥-٧] وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال، فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب. **وثانيها:** أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جُعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جُعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جُعلت ركوبة أمكن أن يُقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما رُكب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جُعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها: أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعًا في قلب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير؛ لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل: ٦] ومنها: أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق، فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب، والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل، فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف، حتى أن الذي عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فإن ذلك الحيوان اهتدى إليه، ومنها: أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير، ومباينة لغيرها أيضًا في أنها يُحمل عليها وهي باركة ثم تقوم.

فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها،

ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها؛ فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ أي رفعًا بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد.

﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ نصبًا ثابتًا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول.

﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ سطحًا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها، ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة. وهو ضعيف؛ لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح، وقرأ علي عليه السلام (كيف خلقتُ ورفعتُ ونصبتُ وسطحتُ) على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير فعلتها، فحذف المفعول.

المقام الثاني في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة: اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب، قال صاحب (الكشاف): ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبهًا بالإبل في كثير من أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة، أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرًا؛ لأن بلدتهم بلدة خالية من الزرع، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرًا ما يسيرون عليها في المهامه والقفار مستوحشين منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء؛ لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظرًا عجيبًا، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يمينًا وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمَره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئًا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية.

الوجه الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين: منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معًا، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب، وليس للشهوة فيها نصيب.

والقسم الأول: كالإنسان الحسن الوجه، والبساتين النزهة، والذهب والفضة وغيرها، فهذه

الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها؛ لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعًا عن إتمام النظر والفكر وسببًا لاستغراق النفس في محبته.

أما القسم الثاني: فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها، إلا أن ذكر الإبل ههنا أوْلى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة، وليس فيها ما يكون نصيبًا للشهوة، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة، لا جرم أمر الله بالتدبر فيها، فهذا ما يحضرنا في هذا الموضع، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن الدلائل على صحة التوحيد والمعاد، قال لرسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه، وبيان أنه إنما بُعث لذلك دون غيره، فلهذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمسلط، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم، والمعنى أنك ما أُمرت إلا بالتذكير، فأما أن تكون مسلطًا عليهم حتى تقتلهم، أو تُكرههم على الإيمان فلا، قالوا: ثم نسختها آية القتال. هذا قول جميع المفسرين، والكلام في تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧].

أما قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية قولان: أحدهما: أنه استثناء حقيقي، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء، استثناء عماذا؟ فيه احتمالان: الأول: أن يقال: التقدير: فذكِّر إلا من تولى وكفر. والثاني: أنه استثناء عن الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ [الغاشية: ٢٢] والتقدير: لست عليهم بمسيطر إلا من تولى. واعترض عليه بأنه عليه السلام ما كان حينئذٍ مأمورًا بالقتال. وجوابه: لعل المراد أنك لا تصبر مسلطًا إلا على من تولى. القول الثاني: أنه استثناء منقطع عما قبله، كما تقول في الكلام: قعدنا نتذكر العلم إلا أن كثيرًا من الناس لا يرغب، فكذا ههنا التقدير: لستَ بمسئول عليهم، لكن من تولى منهم فإن الله يعذبه العذاب الأكبر الذي هو عذاب جهنم. قالوا: وعلامة كون الاستثناء منقطعًا حسن دخول (أنَّ) في المستثني، وإذا كان الاستثناء متصلاً لم يحسن ذلك، ألا

ترى أنك تقول: عندي مائتان إلا درهمًا، فلا تُدخل عليه (أنَّ)، وههنا يحسن (أن)، فإنك تقول: إلا أنَّ من تولى وكفر فيعذبه الله.

المسألة الثانية: قرئ: (أَلاَ مَنْ تَوَلَّى) على التنبيه، وفي قراءة ابن مسعود: (فَإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ).

المسألة الثالثة: إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه: **أحدها**: أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، **وثانيها**: هو العذاب في الدرك الأسفل في النار. **وثالثها**: أنه قد يكون العذاب الأكبر حاصلاً في الدنيا، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال. والقول الأول أَوْلى وأقرب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ وهذا كأنه من صلة قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤]وإنما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبي ﷺ حزنه على كفرهم، فقال: طب نفسًا عليهم، وإن عاندوا وكذبوا وجحدوا، فإن مرجعهم إلى الموعد الذي وعدنا، فإن علينا حسابهم. **وفيه سؤال**: وهو أن محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم وذلك حق الله تعالى، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه. **والجواب**: أن ذلك واجب عليه إما بحكم الوعد الذي يمتنع وقوع الخلف فيه، وإما في الحكمة، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيهًا بكونه تعالى راضيًا بذلك الظلم، وتعالى الله عنه، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة: **وههنا مسألتان**:

المسألة الأولى: قرأ أبو جعفر المدني: (إِيَّابهم) بالتشديد. قال صاحب (الكشاف): وجهه أن يكون فيعالاً، مصدره أيَّب، فيعل من الإياب، أو يكون أصله أوابًا، فعَّالاً من أوب، ثم قيل: إيوابًا كديوان في دون، ثم فعل به ما فُعل بأصل سيد.

المسألة الثانية: فائدة تقديم الظرف التشديد بالوعيد، فإن ﴿إِيَابَهُمْ﴾ ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير.

والله سبحانه وتعالى أعلم, وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «الغاشية»

وهي مكية في قول الجميع، وهى ستٌّ وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾

«هل» بمعنى قد، كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]؛ قاله قُطْرب[١]. أي: قد جاءك يا محمدُ حديثُ الغاشية، أي: القيامةِ التي تَغْشَى الخلائقَ بأهوالها وأفْزاعِها؛ قاله أكثرُ المفسِّرين.

وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب: «الغاشية»: النار تَغْشَى وجوهَ الكفارِ ـ ورواه أبو صالحٍ عن ابن عباس ـ ودليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠][٢]. وقيل: تغشَى الخَلْق.

وقيل: المرادُ النفخةُ الثانيةُ للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: «الغاشية»: أهلُ النار يَغْشَوْنها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى «هل أتاك»، أي: هذا لم يكن مِن عِلْمِك، ولا مِن عِلْمِ قومِك، قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيلِ المذكورِ هاهنا.

وقيل: أنَّها خرجتْ مخرجَ الاستفهامِ لرسوله، ومعناه: إنْ لم يكن أتاك حديث الغاشيةِ فقد أتاك؛ وهو معنى قولِ الكلبيِّ.

قوله: تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثُهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧ ، وزاد المسير ٩/ ٩٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢ دون قوله: ورواه أبو صالح عن ابن عباس. وأخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٢٧.

يومَ القيامة. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ قال سفيان: أي: ذليلةٌ بالعذاب. وكلُّ متضائلٍ ساكنٍ: خاشعٌ. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلَّل ونكَّس رأسَه. وخَشَع الصوتُ: خَفِيَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨].

والمرادُ بالوجوه أصحابُ الوجوه. وقال قتادةُ وابن زيد: «خاشعةٌ»، أي: في النار[١]. والمرادُ وجوهُ الكفارِ كلِّهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوهَ اليهودِ والنصارى؛ قاله ابنُ عباس[٢].

ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأنَّ الآخرة ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وجوهٌ عاملةٌ ناصبةٌ في الدنيا، «خاشعةٌ» في الآخرة. قال أهلُ اللغة: يقال للرجل إذا دَأَبَ في سيره: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. ويقال للسَّحاب إذا دام بَرْقُه: قد عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً. وذا سحابٌ عَمِلٌ. قال الهذليُّ:

حتى شَآها كَليلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ باتَتْ طِرَاباً وباتَ الليلَ لم يَنَمِ[٣]

﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تَعِبةٌ. يقال: نَصِبَ ـ بالكَسْر ـ يَنْصَبُ نَصَبًا: إذا تَعِبَ، ونَصْبًا أيضاً، وأَنْصَبه غيرُه. فروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هم الذين أَنْصَبوا أنفسَهم في الدنيا على معصية اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى الكفر، مثل عَبَدةِ الأوثان، وكفَّارِ أهلِ الكتاب مثل الرهبان وغيرِهم، لا يقبلُ الله جلَّ ثناؤه منهم إلَّا ما كان خالصاً له[٤].

وقال سعيد عن قتادة: «عاملةٌ ناصبةٌ» قال: تكبَّرتْ في الدنيا عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، فأَعْمَلَها الله وأَنْصَبَها في النار، بجرِّ السلاسل الثِّقال، وحَمْلِ الأغلال،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والطبري ٢٤/ ٣٢٨ عن قتادة.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٥٧-٢٥٨، وأخرج قول ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٠.

(٣) البيت لساعدة بن جؤية، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٨، والكتاب ١/ ١١٤، والخزانة ٨/ ١٥٥. قوله: شآها، أي: ساقها. كليل، أي: برق ضعيف. والموهن: القطعة من الليل. والعَمِل: الدائب المجتهد في أمره، الذي لا يفتر. وباتت طراباً. يعني البقر الوحشية طراباً إلى السير إلى الموضع الذي فيه البرق. وبات الليلَ لم ينم، أي: بات البرق يبرق ليلته. الخزانة ٨/ ١٦٠.

(٤) ذكره الوحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ من طريق عطاء عن ابن عباس.

والوقوفِ حُفاةً عُراةً في العَرَصات، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة[١]. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تَعْمَلْ لله في الدنيا، ولم تَنْصَبْ له، فأَعْمَلَها وأَنْصبَها في جهنَّم[٢].

وقال الكلبيُّ: يُجَرُّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارْتِقاءَ جبلٍ من حديدٍ في جهنَّم، فيَنْصَبون فيها أشدَّ ما يكونُ من النَّصَب، بمعالجةِ السلاسل والأغلال، والخوضِ في النار كما تخوضُ الإبلُ في الوَحَل، وارتقائها في صَعُودٍ من نار، وهبوطِها في حَدُورٍ منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس[٣].

وقرأ ابن مُحيصِنٍ وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير: «ناصبةً»[٤] بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون بالرفع على الصِّفة، أو على إضمارِ مبتدأ، فيوقَفُ على «خاشعة». ومَن جَعَل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبرٍ عن «وجوهٌ»، فلا يوقَفُ على «خاشعة».

وقيل: «عاملة ناصبة»، أي: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ في الآخرة. وعلى هذا يحتمل: وجوهٌ يومئذٍ عاملةٌ في الدنيا، ناصبةٌ في الآخرة، خاشعةٌ. قال عكرمةُ والسدِّيُّ: عَمِلتْ في الدنيا بالمعاصي[٥]. وقال سعيد بن جبير وزيد بنُ أَسْلَمَ: هم الرُّهبان أصحابُ الصوامع. وقاله ابن عباس[٦]. وقد تقدَّم في روايةِ الضحَّاك عنه. وروي عن الحسن قال: لمَّا قَدِمَ عمر بنُ الخطاب ﷺ الشامَ أتاه راهبٌ شيخٌ كبيرٌ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ دون قوله: بجر السلاسل... ، والعَرَصات جمع عَرْصة، وهي كلُّ موضعٍ واسع لا بناء فيه. اللسان (عرص).

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٣٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٧٨ .

(٤) المحتسب ٢/٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٥/٤٧٢ .

(٥) ذكر قولهما البغوي ٤/٤٧٨ ، وابن الجوزي ٩/٩٥ ولفظه: عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة.

(٦) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/٤٧٣ .

مُتَقَهِّلٌ، عليه سوادٌ، فلمَّا رآه عمرُ بَكَى. فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، ما يُبْكيكَ؟ قال: هذا المسكين طَلَبَ أمراً فلم يُصِبْه، ورَجَا رجاءً فأَخْطأه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[(١)]. قال الكسائيُّ: التقَهُّل: رثاثةُ الهيئة، ورجلٌ مُتَقَهِّل: يابسُ الجِلْدِ سَيِّئُ الحال، مثل المتقحِّل. وقال أبو عمرو: التقهُّل: شَكْوَى الحاجة، وأنشد:

لَـعْـوًا إذا لاقـيـتـه تـقـهَّـلا[(٢)].

والقَهْل: كُفْرانُ الإحسانِ. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أَثْنَى ثناءً قبيحاً. وأَقْهَلَ الرجلُ: تكلَّف ما يَعيبهُ ودنَّس نَفْسَه. وانْقَهَلَ: ضَعُفَ وسَقَطَ؛ قاله الجوهريُّ[(٣)].

وعن عليٍّ ﷺ: أنهم أهلُ حَرُوراء، يعني الخوراجَ الذين ذَكَرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحقِرون صلاتَكم مع صلاتِهم، وصيامَكم مع صيامِهم، وأعمالَكم مع أعمالِهم، يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّة» الحديث[(٤)].

قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

أي: يُصيبها صِلاؤُها وحرُّها ﴿حَامِيَةً﴾ شديدةَ الحرِّ، أي: قد أُوْقِدَتْ وأُحْمِيتْ المدةَ الطويلة. ومنه حَمِيَ النهارُ بالكَسْر، وحَمِيَ التنورُ حَمْياً فيهما، أي: اشتدَّ حرُّه. وحكى الكِسائيُّ: اشتدَّ حَمْيُ الشمسِ وحَمْوُها، بمعنى[(٥)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والحاكم ٢/ ٥٢١-٥٢٢، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٣ بنحوه من طريق أبي عمران الجوني عن عمر.

(٢) وقبله: فلا تكونن ركيكاً تنتلا، وهو في الصحاح (قهل) والكلام منه، وأساس البلاغة. (قهل)، واللسان (قهل) و(ذرمل). قوله: لعواً، اللعو: السَّيِّءُ الخلُق، والشَّرِه الحريص. القاموس (لعو).

(٣) في الصحاح (قهل).

(٤) ينظر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن أحمد (١١٠٠٨) و(١١٢٩١) و(١١٥٧٩)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٥) الصحاح (حمى).

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوبُ: «تُصْلَى» بضم التاء. الباقون بفتحها[١]. وقرئ: «تُصَلَّى» بالتشديد[٢]. وقد تقدَّم القولُ فيها في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[٣].

الماوَرْدِيُّ[٤]: فإنْ قيل: فما معنى وَصْفِها[٥] بالحَمْي وهي لا تكونُ إلَّا حاميةً، وهو أقلُّ أحوالها، فما وَجْهُ المبالغةِ بهذه الصِّفة الناقصة؟

قيل: قد اختُلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعةِ أَوْجُهٍ:

أحدُها: أنَّ المراد بذلك أنَّها دائمةُ الحَمْي، وليستْ كنارِ الدنيا التي ينقطعُ حَمْيُها بانطفائها.

الثاني: أنَّ المراد بالحامية أنَّها حِمًى [يمنع] من ارتكابِ المحظورات، وانتهاكِ المحارِم، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، وإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُه، ومَن يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشك أنْ يقعَ فيه»[٦].

الثالث: أنَّها تَحمي نفسها عن أن تطاقَ مُلامَستُها، أو ترامَ مُماسَّتُها، كما يحمي الأسدُ عَرِينَه، ومثلُه قولُ النابغةِ:

تعدو الذئابُ على مَن لا كلابَ له ... وتتَّقي صَولةَ المُسْتأسِدِ الحامي[٧]

---

(١) السبعة ص٦٨١، والتيسير ص٢٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢.

(٣) ص١٦٠ من هذا الجزء.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) في النسخ الخطية: صفتها.

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٧) طبقات الفحول ١/ ٥٧، والأغاني ١/ ٧٩، وتهذيب اللغة ١٥/ ٧٦، ونُسب للزبرقان كما في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٥٤٠، والصحاح (ثفر). قال ابن سلام: سألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده في شعره، كالمَثَل حين جاء موضعه، لا مجتلباً له. اهـ. ووقع في المصادر عدا الأغاني: وتتقي مَرْبِضَ المستثفر الحامي. قال الأزهري: استثفار الكلب: إدخالهُ ذَنَبَه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه.

الرابع: أنَّها حاميةُ حَمْيَ غيظٍ وغضب؛ مبالغةً في شدَّة الانتقام. ولم يُرِدْ حَمْيَ جِرْمٍ وذاتٍ، كما يقال: قد حَمِيَ فلانٌ: إذا اغتاظَ وغضب عند إرادةِ الانتقام. وقد بيَّن الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾

الآني: الذي قد انتهى حَرُّه؛ من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه «آنَيْتَ وآذَيْتَ»[1]. وآناه يُؤْنيه إيناءً، أي: أخَّره وحَبَسه وأبْطأه ومنه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. وفي التفاسير: «مِن عينٍ آنيةٍ»، أي: تَناهَى حرُّها؛ فلو وَقَعتْ نقطةٌ منها على جبالِ الدنيا لذابتْ[2]. وقال الحسن: «آنيةٍ» أي: حرُّها أدرك[3]؛ أُوْقِدَتْ عليها جهنَّمُ منذ خُلِقَتْ، فدُفِعوا إليها وِرْداً عِطاشاً[4]. وعن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ قال: بَلَغتْ إنَاها، وحان شربها[5].

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار. ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لمَّا ذَكَر شرابَهم ذَكَر طعامهم. قال عكرمةُ ومجاهدٌ: الضَّريع، نبتٌ ذو شوكٍ لاصِق بالأرض، تُسمِّيه قريشٌ الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضَّريع، لا تَقْرَبُه دابةٌ ولا بهيمةٌ، ولا ترعاه، وهو سُمٌّ قاتلٌ، وهو أخبثُ الطعامِ وأشْنَعُه. على هذا عامَّةُ المفسِّرين[6]، إلَّا أنَّ الضحَّاكَ روى عن ابن عباس قال: هو شيءٌ يَرْمي به البحر، يُسمَّى الضَّريعَ، من أقوات الأنعام لا الناسِ، فإذا وقعتْ فيه الإبلُ لم تَشْبَعْ، وهَلَكتْ هُزْلاً. والصحيحُ ما

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٧).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ .

(٣) في (د) ادارك.

(٤) الوسيط ٤/ ٤٧٤ دون قوله: أي حرها أدرك.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣١-٣٣٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ .

قاله الجمهورُ: أنه نَبْتٌ. قال أبو ذُؤيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى وعاد ضَريعاً بانَ عنه النَّحائصُ[(١)]

وقال الهُذَليُّ وذَكَر إبلاً وسوءَ مَرْعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكلُّها حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ[(٢)]

وقال الخليل: الضَّريعُ: نباتٌ أخضرُ مُنتنُ الريحِ، يَرْمي به البحر.

وقال الوالِبيُّ عن ابن عباس: هو شجرٌ من نار[(٣)]، ولو كانت في الدنيا لأحْرقت الأرضَ وما عليها.

وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة. وقاله عكرمة[(٤)].

والأَظْهَرُ أنه شجرٌ ذو شوكٍ حَسْبَ ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «الضريعُ: شيءٌ يكونُ في النار، يُشبه الشوكَ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، وأَنْتَنُ من الجيفة، وأَحَرُّ من النار، سمَّاه الله ضريعاً»[(٥)].

وقال خالد بن زياد[(٦)]: سمعتُ المتوكِّلَ بنَ حمدان[(٧)] يُسأَلُ عن هذه الآية:

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٥ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣ ، ولم نقف عليه في ديوان الهذليين. قوله: النحائص، هي جمع نحوص: وهي الناقة الشديدة السِّمَن. القاموس (نحص).

(٢) البيت لقيس بن عيزارة، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٧٣ . قال الشارح: الهَزْم: ما تكسَّر من الضريع. وحَرود: لا تكاد تَدُرّ.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣٣ ، وزاد المسير ٩/ ٩٦ .

(٤) أخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ٢٤/ ٣٣٢ ، وذكره عن عكرمة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١١ .

(٥) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٤ ، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٢ ، وسنده واه كما ذكر السيوطي.

(٦) الأزدي، أبو عبد الرحمن الترمذي، قال ابن حبان: يروي عن نافع صحيفة مستقيمة، وعن قتادة الحرف بعد الحرف، مات وهو ابن مئة سنة وسنة، وكان على القضاء بترمذ. الثقات ٦/ ٢٦٣ ، وتهذيب التهذيب ١/ ٥١٩ .

(٧) لعله المتوكل بن حمران البلخي، ذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٩٨ وقال: من العبَّاد، يروي عن كثير ابن زياد وأبي سهل، روى عنه أهل بلده.

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾. قال: بلغني أنَّ الضَّريعَ شجرةٌ من نارِ جهنَّم، حَمْلُها القيحُ والدَّمُ، أشدُّ مرارةً من الصَّبر، فذلك طعامُهم. وقال الحسن: هو بعضُ ما أخفاه الله من العذاب.

وقال ابن كيسان: هو طعامٌ يَضْرَعون عنده ويَذِلُّون، ويتضرَّعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسمِّي بذلك لأنَّ آكِلَه يَضرَعُ في أنْ يُعْفَى منه، لكراهته وخُشونته[1]. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقًّا من الضَّارع، وهو الذليلُ، أي: ذو ضراعةٍ، أي: مَن شَرِبه ذليلٌ تلحقُه ضَراعةٌ. وعن الحسن أيضاً: هو الزَّقُّوم[2]. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم.

وقد قال الله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦]. وقال هنا: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ وهو غيرُ الغِسْلِين. ووَجْهُ الجمعِ: أنَّ النار دَرَكاتٌ؛ فمنهم مَنْ طعامُه الزَّقومُ، ومنهم مَن طعامُه الغِسْلِينُ، ومنهم مَن طعامُه الضَّريعُ، ومنهم مَن شرابُه الحميمُ، ومنهم مَن شرابُه الصَّديد[3]. قال الكلبيُّ: الضريعُ في درجةٍ ليس فيها غيرُه، والزَّقومُ في درجةٍ أُخرى. ويجوزُ أنْ تُحمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٥٥].

القُتَبيُّ[4]: ويجوزُ أن يكون الضريعُ وشجرةُ الزَّقومِ نَبْتينِ من النار، أو مِن جوهرٍ لاتأكلُه النار. وكذلك سلاسلُ النارِ وأغلالُها، وعقاربُها وحَيَّاتها، ولو كانت على ما نَعْلَم ما بقيتْ على النار. قال: وإنَّما دلَّنا الله على الغائبِ عنده، بالحاضرِ عندنا، فالأسماءُ متَّفقةُ الدلالةِ، والمعاني مختلفةٌ. وكذلك ما في الجنة من شجرها وفُرُشها.

القُشَيريُّ: وأَمْثَلُ من قولِ القُتَبيِّ أن نقول: إنَّ الذي يُبقي الكافرين في النار ليدومَ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٩٧ مختصراً.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢١١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٤٨ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٤ .

(٤) في تأويل مشكل القرآن ص٥٠ .

عليهم العذابُ، يُبقي النباتَ وشجرةَ الزقومِ في النار ليعذِّب بها الكفار.

وزعم بعضُهم أنَّ الضَّريع بعَيْنِهِ لا يَنْبتُ في النار، ولا أنَّهم يأكلونه. فالضريعُ مِن أَقْواتِ الأنعام، لا مِن أَقْواتِ الناس. وإذا وقعت الإبلُ فيه لم تَشْبَعْ، وهلكتْ هزلاً، فأراد أنَّ هؤلاء يقتاتون بما لا يُشْبِعُهم، وضَرَب الضَّريعَ له مثلاً، أنهم يعذَّبون[1] بالجوع كما يَعذَّبُ مَن قُوتُه الضَّريعُ.

قال الترمذيُّ الحكيم: وهذا نظرٌ سقيمٌ من أهله وتأويلٌ دنيءٌ، كأنه يدلُّ على أنَّهم تحيَّروا في قدرة الله تعالى. وإنَّ الذي أنْبتَ في هذا الترابِ هذا الضريعَ قادرٌ على أنْ يُنْبِتَه في حريق النار، كما [2] جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً، فلا النارُ تُحْرِقُ الشجرَ، ولا رطوبةُ الماءِ في الشجر تُطْفِئُ النارَ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. وكما قيل حين نزلت ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، قالوا: يا رسول الله، كيف يَمشونَ على وجوههم؟ فقال: «الذي» أمشاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم»[3]. فلا يتحيَّرُ في مثلِ هذا إلا ضعيفُ القلب. أوَليس قد أخبَرنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: قيوداً ﴿وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٢-١٣] قيل: ذا شوك. فإنَّما يَتلوَّنُ عليهم العذابُ بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾

يعني الضريعَ لا يُسْمِنُ آكلَه. وكيف يَسْمَنُ مَن يأكلُ الشوكَ! قال المفسِّرون: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال المشركون: إنَّ إبلَنا لتَسْمَنُ بالضَّريع، فنزلتْ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٤٩ (والكلام منه): أو يعذبون، بدل: أنهم يعذبون.

(٢) قوله: كما، ليس في (م).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣٩٢)، والبخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٦٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِن جُوعٍ﴾[(١)]. وكَذَبوا، فإنَّ الإبل إنَّما ترعاه رَطْباً، فإذا يَبِسَ لم تأكلْه[(٢)]. وقيل: اشْتَبَه عليهم أمرُه فظنُّوه كغيره من النَّبْتِ النافع؛ لأنَّ المضارَعةَ: المشابهة، فوجدوه لا يُسْمِنُ[(٣)] ولا يغني من جوع.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝﴾

قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ذاتُ نَعْمةٍ. وهي وجوهُ المؤمنين، نَعِمَتْ بما عايَنَتْ من عاقبة أَمْرِها وعَمَلِها الصالح. ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي: لعملها الذي عَمِلَتْه في الدنيا. ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيتِ الجنة بعَمَلِها. ومَجازُه: لثوابِ سَعْيِها راضيةٌ. وفيها واوٌ مُضْمَرةٌ، المعنى: ووجوهٌ يومئذٍ، للفصل بينها وبين الوجوهِ المتقدِّمة. والوجوهُ عبارةٌ عن الأنفُس.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مُرْتفعةٍ؛ لأنَّها فوق السماوات حَسْبَ ما تقدَّم. وقيل: عاليةِ القَدْرِ؛ لأنَّ فيها ما تَشْتَهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأَعْيُن، وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝﴾

أي: كلاماً ساقطاً غيرَ مَرْضِيٍّ. وقال: «لاغية»، واللَّغْو واللَّغَا واللَّاغية: بمعنًى واحدٍ؛ قال:

عـنِ اللَّـغَـا ورَفَـثِ التَّـكـلُّـمِ[(٤)]

وقال الفرَّاء والأخفش: أي: لا تَسمعُ فيها كلمةَ لغوٍ[(٥)]. وفي المراد بها ستةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٧، والوسيط ٤/ ٤٧٥، والكشاف ٤/ ٢٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩.

(٣) في (د): لا يشبع.

(٤) البيت للعجاج، وهو في ديوانه ص٢٨٣، وقبله: ورَبِّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ. أقسم بربِّ أسراب حجيج، وأسراب الحجيج: جماعات الحاجِّ. والكظْم: السكوت. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٢٥٩.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠، وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٧٣٧. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

أَوْجُهٍ: أحدها: يعني كذبًا وبُهتانًا وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثاني: لا باطلَ ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع: المعصية؛ قاله الحسن[١]. الخامس: لا يُسْمَعُ فيها حالفٌ يحلفُ بكذبٍ؛ قاله الفرَّاء[٢]. وقال الكلبيُّ: لا يُسمع في الجنة حالفٌ بيمينٍ برَّةٍ ولا فاجرة[٣]. السادس: لا يُسمع في كلامهم كلمةٌ تُلْغَى؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لا يتكلَّمون إلَّا بالحكمةِ وحَمْدِ الله على ما رَزَقَهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرَّاء أيضاً[٤]. وهو أحسنُها لأنه يَعمُّ ما ذُكر.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «لا يُسْمَع» بياءٍ غير مسمَّى الفاعل. وكذلك نافع، إلَّا أنَّه بالتاء المضمومة[٥]؛ لأنَّ اللاغيةَ اسمٌ مؤنثٌ فأنثَ الفعل لتأنيثه. ومَن قرأ بالياء فلأنه حالَ بين الاسم والفعلِ الجارُّ والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحةً، «لاغِيةً» نَصْباً[٦]، على إسنادِ ذلك للوجوه، أي: لا تسمعُ الوجوهُ فيها لاغيةً.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماءٍ مُنْدَفقٍ، وأنواعِ الأشربةِ اللذيذةِ على وَجْهِ الأرضِ من غيرِ أُخدود. وقد تقدَّم في سورة الإنسان[٧] أنَّ فيها عيونًا، فـ«عينٌ» بمعنى: عيون. والله أعلم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعُها قَدْرَ ما بين السماءِ

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٠، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٧.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٠.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦١، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٥) ومَن قرأ بهاتين القراءتين قرأ: «لاغيةٌ» بالرفع. السبعة ص٣٨١، والتيسير ص٢٢٢.

(٦) في (م): نصاً.

(٧) ٢١/ ٤٥٦.

والأرض، ليرَى وليُّ اللهِ مُلْكَه حَوْلَه.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أباريقُ وأوانٍ. والإبريق: هو ماله عُروةٌ وخُرطوم. والكوبُ: إناءٌ ليس له عروةٌ ولا خرطوم. وقد تقدَّم هذا في سورة «الزخرف»[(١)] وغيرِها.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي: وسائدُ، الواحدةُ: نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: واحدة إلى جَنْبِ الأخرى، قال الشاعر:

وإنا لنُجْرِي الكأسَ بين شُروبنا ... وبينَ أبي قابوسَ فَوقَ النَّمارِقِ[(٢)]

وقال آخر:

كُهولٌ وشبَّانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ ... على سُرُرٍ مَصفوفةٍ ونَمارِقِ[(٣)]

وفي «الصحاح»: النُّمْرُقُ والنُّمرُقةُ: وسادةٌ صغيرة. وكذلك النِّمرِقة ـ بالكسر ـ لغةٌ حكاها يعقوب. وربَّما سَمَّوا الطِّنْفِسةَ التي فوق الرَّحْلِ نُمرقة؛ عن أبي عُبيد[(٤)].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: قال أبو عُبيدة[(٥)]: الزرابيُّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيُّ: الطَّنافسُ التي لها خَمْلٌ رقيقٌ، واحدتُها: زربية[(٦)]. وقاله الكلبيُّ والفرَّاء[(٧)].

والمبثوثة: المبسوطةُ؛ قاله قتادة. وقيل: بعضُها فوق بعضٍ؛ قاله عكرمةُ. وقيل: كثيرة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: متفرقةٌ في المجالس؛ قاله القُتَبيّ[(٨)].

---

(١) ١٩/ ٨١ - ٨٢.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٦٩. قوله: شُروبنا، الشُّروب: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٣) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ لزهير، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) الصحاح (نمرق).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٦.

(٦) تكسر زايها وتفتح وتضم. النهاية (زرب).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٨، وذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦١.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٦١-٢٦٢. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٨، وقول الفراء في معاني =

قلت: هذا أَصْوَبُ، فهي كثيرةٌ متفرِّقةٌ. ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بن الحسين، قال: حدَّثنا حسين بن عرفة، قال: حدَّثنا عمار بن محمد، قال: صلَّيتُ خَلْفَ منصور بنِ المعتمر، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وقرأ فيها: «وزَرَابيٌّ مَبْثُوثةٌ متَّكئين فيها ناعمين»(١).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾

قال المفسِّرون: لمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ أَمْرَ أهلِ الدارَيْنِ، تعجَّب الكفار من ذلك، فكذَّبوا وأنكروا، فذكَّرهُمُ الله صنعته وقُدْرتَه، وأنه قادرٌ على كلِّ شيء، كما خَلَقَ الحيواناتِ والسماءَ والأرضَ. ثم ذَكَر الإبلَ أولاً، لأنَّها كثيرةٌ في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلةَ، فنبَّههم جلَّ ثناؤه على عظيمٍ مِن خَلْقِه، قد ذلَّله للصغير يقودُه ويُنيخُه ويُنْهِضُه، ويحملُ عليه الثقيل من الْحِمْل وهو بارِكٌ، فينهضُ بثقيلِ حِمْلِه، وليس ذلك في شيءٍ من الحيوان غيرِه. فأراهم عظيماً من خَلْقِه، مسخَّراً لصغيرٍ مِن خَلْقِه؛ يدلُّهم بذلك على توحيده وعظيمِ قدرته.

وعن بعضِ الحكماءِ: أنَّه حُدِّثَ عن البعير وبديعِ خَلْقِه، وقد نشأ في بلادٍ لا إبلَ فيها، ففكَّر ثم قال: يوشكُ أنْ تكونَ طِوالَ الأعناقِ. وحين أراد بها أن تكونَ سفائنَ البرِّ، صبَّرها على احتمالِ العطش، حتى إنَّ إظماءَها ليرتفعُ إلى العَشْر فصاعداً، وجعلها ترعَى كلَّ شيءٍ نابتٍ في البراري والمفاوزِ، ممَّا لا يرعاه سائرُ البهائم(٢).

وقيل: لَمَّا ذَكَر السُّرُرَ المرفوعةَ قالوا: كيف نَصْعدُها؟ فأنزل الله هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ الإبلَ تَبْرُك حتى يُحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السُّرُر تَتطامنُ ثم ترتفع. قال

= القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٥٢٥. وقول عكرمة أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(١) الخبر في كتاب المصاحف لابن الأنباري، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٣.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٧.

معناه قتادةُ ومقاتلٌ وغيرهما[١].

وقيل: الإبلُ هنا القِطَعُ العظيمةُ من السحاب؛ قاله المبرِّد[٢]. قال الثعلبيُّ: وقيل في الإبِل هنا: السحابُ، ولم أَجِدْ لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذَكَر الأصمعيُّ أبو سعيدٍ عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: مَن قرأها: «أفلا ينظُرون إلى الإبِلِ كيف خُلِقتْ» بالتخفيف: عنَى به البعير؛ لأنَّه من ذواتِ الأربع، يَبرُك فتُحْمَلُ عليه الحمولةُ، وغيرهُ من ذواتِ الأربع لا يُحملُ عليه إلَّا وهو قائم. ومَن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبِلّ» عنَى بها السحابَ التي تحملُ الماءَ للمطر[٣].

وقال الماوَرْديُّ[٤]: وفي الإبل وجهان: أحدُهما ـ وهو أَظْهَرُهما وأَشْهرُهما ـ: أنَّها الإبلُ من النَّعَم. الثاني: أنَّها السَّحابُ. فإنْ كان المرادُ بها السحابَ، فلِمَا فيها من الآيات الدالَّةِ على قُدْرَته، والمنافع العامَّة لجميع خَلْقِه. وإن كان المرادُ بها الإبلَ من النَّعَم، فلأنَّ الإبلَ أَجْمعُ للمنافع من سائر الحيوان؛ لأنَّ ضُروبَه أربعةٌ: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبلُ تجمع هذه الخِلالَ الأربع، فكانت النعمةُ بها أعمَّ، وظهورُ القدرةِ فيها أتمَّ.

وقال الحسن: إنَّما خصَّها الله بالذِّكْرِ لأنها تأكلُ النَّوى والقَتَّ، وتُخرِجُ اللَّبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيلُ أعظمُ في الأعجوبة! فقال: العربُ بعيدةُ العهدِ بالفيل، ثم هو خنزيرٌ لا يُؤكل لحمُه، ولا يُركبُ ظَهْرُه، ولا يُحلَبُ دَرُّه[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ وزاد المسير ٩/ ٩٩ عن قتادة دون قوله: وبين أن الإبل تبرك . . .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤ ، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢١٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ دون نسبة.

(٣) اللسان (أبل)، وذكر قول أبي عمرو مختصراً ابن خالويه في القراءة الشاذة ص١٧٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٢٦٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٧٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٠ .

وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة حتى ننظرَ إلى الإبل كيف خُلِقت[١].

والإبل: لا واحدَ لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيثُ لها لازم، وإذا صغَّرتَها دَخَلَتْها الهاءُ، فقلتَ: أُبيلة وغُنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ أي: رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالُها شيء. ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ أي: كيف نُصبت على الأرض بحيث لا تزول، وذلك أن الأرض لمَّا دُحِيت مادت، فأرساها بالجبال، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ أي: بُسطت ومدّت. وقال أنس: صلَّيت خلف عليّ ﷺ، فقرأ: «كَيفَ خَلَقْتُ» و«رَفَعْتُ» و«نَصَبْتُ» و«سَطَحْتُ»، بضم التاءات[٣]؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية، والمفعول محذوف، والمعنى: خلقتها. وكذلك سائرُها.

وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء[٤]. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنَّهم خفَّفوا الطاء. وقدَّم الإبل في الذكر، ولو قدَّم غيرها لجاز.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٣٩ ، والكناسة: محلةٌ بالكوفة. معجم البلدان ٤/ ٤٨١ .

(٢) الصحاح (أبل).

(٣) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٦ عن هارون الرشيد، وذكرها عن الحسن ابن عطية في المحرر الموجيز ٥/ ٤٧٥ .

قال القشيري: وليس هذا ممَّا يُطلب فيه نوعُ حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حقِّ العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرفِ الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر، فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظَم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تَفكَّر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء؛ فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فعِظْهُم يا محمدُ وخوِّفْهم. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: واعِظٌ. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نَسَخَتْها آيةُ السَّيف.

وقرأ هارون الأعور: «بِمُسَيْطَرٍ» بفتح الطاء، و«المُسَيْطَرون» [الطور:٣٧]. وهي لغةُ تميم(١).

وفي «الصِّحاح»: المُسَيطِر والمُصَيْطِر: المُسَلَّطُ على الشيء، ليُشْرِفَ عليه، ويتعهَّدَ أحواله، ويكتبَ عملَه، وأصلهُ من السَّطر؛ لأنَّ الكتاب مُسَطَّرٌ(٢)، والذي يفعلُه مُسَطِّر ومُسَيْطِر؛ يقال: سَيْطَرْتَ علينا، وقال تعالى: «لَسْتَ عليهم بمسَيْطِرٍ».

---

(١) البحر ٨/ ٤٦٤ . قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٨ : قيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء، على أن سيطر متعدٍّ عندهم، وقولهم: تَسَيْطَر، يدل عليه.

(٢) في (م): لأن من معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، وفي النسخ الخطية: لأن معنى السطر ألا يتجاوز فالكتاب مسطر، والمثبت من الصحاح (سطر)، ومثله في اللسان (سطر).

وسَطَرَه، أي: صَرَعَه.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، أي: لكنْ مَن تولَّى عن الوعظِ والتذكير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وهي جهنمُ الدائمُ عذابُها ـ وإنَّما قال: «الأكبر» لأنهم عذِّبوا في الدنيا بالجوع والقَحْطِ والأَسْرِ والقتل ـ ودليلُ هذا التأويلِ قراءةُ ابنِ مسعود: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر فإنَّه يعذِّبُه الله»[١].

وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ، والمعنى: لَسْتَ بمسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر، فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجهاد، واللهُ يعذِّبه بعد ذلك العذابَ الأكبرَ، فلا نَسْخَ في الآية على هذا التقدير.

ورُوِي أنَّ عليًّا أُتِي برجلٍ ارتدَّ، فاستتابه ثلاثةَ أيام، فلم يُعاوِدِ الإسلامَ، فضرب عنقَه، وقرأ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾[٢].

وقرأ ابنُ عباس وقتادةُ: «أَلَا» على الاستفتاح والتنبيه[٣]، كقولِ امرئ القيس:

أَلَا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالِحٍ[٤]

و«مَنْ» على هذا: للشرط. والجوابُ: «فيعذِّبه اللهُ» والمبتدأُ بعد الفاءِ مُضْمَرٌ، والتقدير: فهو يعذِّبُه الله؛ لأنه لو أُرِيدَ الجوابُ بالفعل الذي بَعْدَ الفاءِ لكان: أَلَا مَن تولَّى وكَفَر يعذِّبْه الله[٥].

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي: رُجوعَهم بعد الموت. يقال: آبَ يؤوب، أي: رجع. قال عَبيد:

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨ .

(٢) أخرجه بنحوه مطولاً دون ذكر الآية البيهقي ٨/ ٢٠٦ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٧ .

(٤) وعجزه: ولا سيما يوم بدارة جلجل، وهو في الديوان ص١٠ . قال شارح الديوان: دارة جلجل: موضع يقال له: الحمى. والدار والدارة واحد.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٧ .

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ[١]

وقرأ أبو جعفر: «إِيّابُهِمْ» بالتشديد[٢]. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمَخْشَريُّ[٣]: وقرأ أبو جعفر المدنيُّ: «إِيَّابهم» بالتشديد، ووجهه أن يكون فِيْعالاً: مصدر أَيَّب فَيْعَلَ من الإِيَّاب[٤]. أو أن يكون أصلُه إِوَّاباً فِعَّالاً من أوَّب، ثم قيل: إيواباً، كديوان في دِوَّان. ثم فُعِل [به] ما فُعِل بأصل سيِّد[٥] ونحوِه.

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص٢٦ .

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه .

(٣) في الكشاف ٤/ ٢٤٨ .

(٤) ويقال منه: أَيَّبَ يؤَيِّبُ إِيَّاباً، والأصل: أَيْوَب يُؤَيْوِبُ إيواباً ـ كبَيْطَر يُبَيْطِر ـ ثم قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء المزيدة فيها، فإِيَّاب على هذا: فيعال. ينظر الدر المصون ١٠/ ٢٧٢-٢٧٣ .

(٥) يعني أن أصله: سَيْوِد، فقلبت الواو ياءً وأدغمت. الدر المصون ١٠/ ٢٧٣ .

تفسير سورة الغاشية

وهى مكية .

قد تقدم عن النعمان بن بَشير : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة .

وقال الإمام مالك ، عن ضَمْرَة بن سعيد ، عن عُبَيد الله بن عبد الله : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .

رواه أبو داود عن القَعْنَبى ، والنسائى عن قتيبة ، كلاهما عن مالك ، به (١) . ورواه مسلم وابن ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن ضمرة بن سعيد ، به (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لاَّ يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) ﴾ .

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس وتَعُمّهم . وقد قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم ، قد جاءنى » (٣) .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أى : ذليلة . قاله قتادة . وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها .

وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ، ونَصبت فيه ، وصَلِيت يوم القيامة ناراً حامية .

وقال الحافظ أبو بكر البرقانى : حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّى ، حدثنا محمد بن إسحاق

---

(١) الموطأ (١/ ١١١) وسنن أبى داود برقم (١١٢٣) وسنن النسائى (٣/ ١١٢) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١١١٩) .

(٣) وهذا مرسل وقد تقدم .

وقال الحافظ أبو بكر البرقانى : حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّى ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار [١] ، حدثنا جعفر قال : سمعت أبا عمران الجَونى يقول: مر عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بدير راهب ، قال : فناداه : يا راهب [يا راهب] [٢]. فأشرف . قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك من هذا ؟ قال: ذكرت قول الله ،عز وجل، فى كتابه: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، فذاك الذى أبكانى[٣].

وقال البخارى : قال ابن عباس : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ : النصارى .

وعن عكرمة، والسدى: ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال [٤].

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى : حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أى : قد انتهى حَرّها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسّدى .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : شجر من نار .

وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : هو الشِّبرِقُ . قال قتادة : قريش تسميه فى الربيع الشِّبرِقُ ، وفى الصيف الضريع . قال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض .

وقال البخارى : قال مجاهد : الضريعُ نبتٌ يقال له : الشِّبرِقُ ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس ، وهو سم [٥] .

وقال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ : هو الشِّبرِقُ ، إذا يبس سُمّى الضريع .

وقال سعيد ، عن قتادة : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ يعنى : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾ .

(١) فى أ : « حدثنا يسار » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٢٩٩) عن جعفر بن سليمان ، عن أبى عمران به ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٢٢) من طريق الخضر بن أبان ، عن سيار ، عن جعفر به ، وقال الحاكم :« هذه حكاية فى وقتها ، فإن أبا عمران الجونى لم يدرك زمان عمر » .

(٤) فى م : « والإهلاك » .

(٥) صحيح البخارى (٨/ ٧٠٠) « فتح » .

لما ذكر حال الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أى : يعرف النعيم فيها . وإنما حَصَل لها ذلك بسعيها .

وقال سفيان : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : رفيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ أى : لا يسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو. كما قال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا ﴾ [مريم:٦٢] ، وقال : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:٢٣] . وقال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة:٢٥ ، ٢٦] .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات .

وقال ابن أبى حاتم : قُرِئَ على الربيع بن سليمان : حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن قُرَّة ، عن عبد الله بن ضَمْرة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ــ أو : من تحت جبال ــ المسك »[(١)] .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السَّمْك ، عليها الحور العين . قالوا: فإذا أراد وَلِىُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ، ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى: أوانى الشرب معدة مُرصدة[(٢)] لمن أرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾: قال ابن عباس : النمارق : الوسائد . وكذا قال عكرمة، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : الزرابى: البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد .

ومعنى مبثوثة ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه أبو بكر بن أبى داود : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبى ، عن محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافرى ، عن سليمان بن موسى : حدثنى كُرَيْب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مُشَمِّر للجنة ، فإن الجنة لا خَطَر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دارِ سليمة ،وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نَحن المشمرون لها . قال : « قولوا : إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقى ، عن الوليد بن مسلم[(٣)] ، عن محمد بن

---

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) « موارد » من طريق القراطيسى ، عن أسد بن موسى به .

(٢) فى م : « موضوعة » .   (٣) فى أ : « سلمة » .

مهاجر ، به [١] .

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خَلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ؟ أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبَّه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه، والأرض التى تحته ـ على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه . وهكذا أقسم « ضِمَام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولُك فزعَم لنا أنك تَزعُم أن الله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولُك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

---

(١) البعث لابن أبى داود برقم (٧١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : « مجهول » . وسليمان بن موسى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ . قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حَجّ البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : «صدق» . قال : ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبى ﷺ : «إن صدق ليدخُلَنّ الجنة » .

وقد رواه مسلم، عن عمرو الناقد، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، به[١]. وعَلّقه البخارى، ورواه الترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة به[٢]. ورواه الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث الليث بن سعد ، عن سعيد المقبرى ، عن شريك ابن عبد الله بن أبى نمر ،عن أنس ، به بطوله [٣] ، وقال فى آخره :« وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنى عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة فى الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها ترعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمه ، من خلقك ؟ قالت :الله . قال :فمن خلق أبى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقنى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : إنى لأسمع لله شأنا . وألقى نفسه من الجبل فتقطع .

قال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا .

قال ابن دينار : كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا [٤] .

فى إسناده ضعف ، وعبد الله بن جعفر هذا هو المدينى ، ضَعّفه ولده الإمام على بن المدينى وغيره .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أى : فذكر ـ يا محمد ـ الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال:﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: لست عليهم بجبار .

وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .

قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ .

---

(١) المسند (٣/١٤٣) وصحيح مسلم برقم (١٢) .

(٢) صحيح البخارى (١/١٤٨) « فتح » وسنن الترمذي برقم (٦١٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠١) .

(٣) المسند (٣/١٦٨) وصحيح البخارى برقم (٦٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٢) .

(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/١٧٨) عن أبى يعلى به مثله . وقال : « غير محفوظ ، لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر » .

وهكذا رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » ، والترمذى والنسائى فى كتابى[١] « التفسير » من سننيهما ، من حديث سفيان بن سعيد الثورى ، به بهذه الزيادة [٢] . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية [٣] .

وقوله : ﴿ إِلا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ . قال الإمام أحمد :

حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن على بن خالد[٤] : أن أبا أمامة الباهلى مَرّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شَرَد على الله شِراد البعير على أهله » .

تفرد [٥] بإخراجه الإمام أحمد [٦] ، وعلى بن خالد هذا ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه ،ولم يزد على ما هاهنا : « روى عن أبى أمامة ، وعنه سعيد بن أبى هلال » [٧].

وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

آخر تفسير سورة « الغاشية » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى أ : « فى كتاب » .

(٢) المسند (٣/ ٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٠) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (٢١) .

(٤) فى أ : « على بن أبى خالد » والمثبت من «م» والمسند .

(٥) فى م : « انفرد » .

(٦) المسند (٥/ ٢٥٨) .

(٧) الجرح والتعديل (٦/ ١٨٤) وقد ذكر الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٣) « أنه ثقة » .

سورة الغاشية

مكّيّة، وهي ستّ وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ قيل: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى "قد"، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ الآية [الإنسان، ١/٧٦]، قال قُطرُب: أي: قد جاءك يا محمّد حديث الغاشية.[1] وليس بذاك؛ بل هو استفهام أريدَ به التعجيب ممّا في حيّزه والتشويق إلى استماعه والإشعار / بأنّه مِن الأحاديث البديعة التي حقُّها أن يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقّيها الوُعاة مِن كلّ حاضر وبادٍ. [٢٩٣و]

والغاشية: الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهي القيامة مِن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾... إلخ [العنكبوت، ٥٥/٢٩]. وقيل: هي النار مِن قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم، ٥٠/١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف، ٤١/٧].[2] والأوّل هو الحقّ فإنّ ما سيُروى مِن حديثها ليس مختصًّا بالنار وأهلها؛ بل ناطق بأحوال أهل الجنّة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾[3] استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن الاستفهام التشويقيّ، كأنّه قيل: مِن جهته عليه السلام: ما أتاني حديثها، ما هو؟ فقيل: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾، أي: يوم إذ غشيَت ذليلة.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٩/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٤.

٣ في الآية السادسة عشرة مِن هذه السورة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يكن أتاه عليه السلام حديثُها فأخبره عليه السلام عنها فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾... إلخ،[١] فـ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، ولا بأس بتنكيرها؛ لأنّها في موضع التنويع، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ خبره.

وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ خبران آخران لـ﴿وُجُوهٌ﴾ إذ المراد بها أصحابها، أي: تعمل أعمالًا شاقّةً تتعب فيها وهي جرّ السلاسل والأغلال والخوضُ في النار خوضَ الإبل في الوحل والصعودُ والهبوط في تلال النار ووِهادِها. وقيل: عملت في الدنيا أعمالَ السوء والتذّت بها فهي يومئذ في نَصَب منها. وقيل: عَمِلت ونَصِبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ﴾ أي: تدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: متناهيةً في الحرّ، خبر آخرُ لـ﴿وُجُوهٌ﴾. وقيل: هو الخبر وما قبله صفات لـ﴿وُجُوهٌ﴾.[٣] وقد مرّ غيرَ مرّة أنّ الصفة حقُّها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جَعْلها صفةً له، ولا ريبَ في أنّ صُليَّ النار وما قبله مِن الخشوع والعمل والنَّصَب أمور متساوية في الانتساب إلى الوجوه معرفةً وجهالةً، فجعلُ بعضِها عنوانًا للموضوع قيدًا مفروغًا عنه غيرَ مقصود الإفادة وبعضِها مَناطًا للإفادة تحكّمٌ بحت. ويجوز أن يكون هذا وما بعده / مِن الجملتين استئنافًا مبيّنًا لتفاصيل أحوالها. [٢٩٣ظ]

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: متناهية في الحَرّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٤].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم. والضريع: يبيس الشِّبْرِق، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا وإذا يبس تحامته، وهو سمّ قاتل.[٤] وقيل: هي شجرة ناريّة تشبه الضريع.[٥] وقال ابن كَيْسان: هو طعام يضرعون عنده ويذِلّون ويتضرّعون إلى الله تعالى طلبًا للخلاص منه، فسمّي بذلك.[٦] وهذا طعام لبعض أهل النار، والزّقوم والغِسلين لآخرين.

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.
٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩١.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٨.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٢٦-٥٢٧.
٦ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٠/٢٩٦.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أي: ليس مِن شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا، وإنّما هو شيء يُضطرّون إلى أكله مِن غير أن يكون له دَفْع لضرورتهم، لكن لا على أنّ لهم استعدادًا للشِّبع والسِّمن إلّا أنّه لا يفيدهم شيئًا منهما؛ بل على أنّه لا استعداد مِن جهتهم ولا إفادة مِن جهة طعامهم.

وتحقيق ذلك أنّ جوعهم وعطشهم ليسا مِن قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة مِن حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلَّل مِن البدن مُشوِّقةٍ له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذّ بهما عند الأكل والشرب ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المَعدَة ويستفيد منهما قوّةً وسِمنًا عند انهضامهما؛ بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها مِن اللهب، وأمّا أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما أو التذاذٌ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادةُ قوّةٍ فهيهات.

وكذا عطشُهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد يطفئه مِن غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادةُ قوّة به في الجملة، وهو المعنيّ بما رُوي أنّه تعالى يسلّط عليهم الجوع بحيث يضطرّهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلِّط عليهم العطش فيضطرّهم إلى شُرب الحميم فيشوي / وجوهَهم ويُقطِّع أمعاءهم. [٢٩٤و]

وتنكير الجوع للتحقير، أي: لا يغني مِن جوعٍ ما. وتأخيرُ نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسّل به إلى التصريح بنفي كلا الأمرين؛ إذ لو قُدِّم لَمَا احتيج إلى ذِكر نفي الإسمان ضرورةَ استلزام نفي الإغناء عن الجوع إيّاه بخلاف العكس، ولذلك كُرِّر ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في رواية حديث أهل الجنّة. وتقديمُ حكاية حال أهل النار لأنّه أدخَل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها،

ولأنّ حكاية حُسن حال أهل الجنّة بعد حكاية سوء حال أهل النار ممّا يزيد المحكيّ حسنًا وبهجةً. والكلام في إعراب الجملة كالذي مرّ في نظيرتها، وإنّما لم تُعطَف عليها إيذانًا بكمال تباين مضمونيهما. ومعنى ناعمة ذات بهجة وحُسن، كقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين، ٨٣/٢٤]، أو متنعِّمة.

﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ أي: لعملها الذي عمِلتْه في الدنيا حيث شاهدت ثمرتَه.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ مرتفعة المحلّ أو عليّة المقدار.

﴿لَّا تَسۡمَعُ﴾ أي: أنت أو الوجوه ﴿فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ لغوًا، أو كلمةً ذات لغو، أو نفسًا تلغو، فإنّ كلام أهل الجنّة كلّه أذكار وحِكم. وقُرئ: "لَا يُسمَع" على البناء للمفعول بـ"الياء"[1] و"التاء"[2] ورفع "لَاغِيَةٌ".

﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ أي: عيون كثيرة[3] تجري مياهها، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ [التكوير، ٨١/١٤].

﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ رفيعة السَّمك أو المِقدار ﴿وَأَكۡوَابٞ﴾ جمع كوب: وهو إناء لا عُروةَ له ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾ أي: بين أيديهم، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد، جمع "نمرقة" بالفتح والضمّ، ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ بعضها إلى بعض ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي: بُسُط فاخرة جمع زِربيّة ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾ أي: مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فُصِّل مِن حديث الغاشية وما هو مبنيّ عليه مِن البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

[2] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

[3] في هامش م: فيه إشارة إلى التنوين للتكثير. «منه».

بما لا يستطيعون إنكاره. و"الهمزة" للإنكار والتوبيخ، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، / وكلمة ﴿كَيْفَ﴾ منصوبة بما بعدها، كما في قوله تعالى: [٢٩٤ظ]
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨/٢] معلَّقة لفعل النظر.

والجملة في حيّز الجرّ على أنّها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْإِبِلِ﴾، أي: أيُنكرون ما ذُكر مِن البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه مِن قدرة الله عزّ وجلّ؟ فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نُصب أعينهم يستعملونها كلّ حين، إلى[1] أنّها كيف خُلقت خلقًا بديعًا معدولًا به عن سَنَن خِلْقَة سائر أنواع الحيوانات؛ في عِظَم جثّتها وشدّةِ قوتها وعجيبِ هيئتها اللائقة بتأتّي ما يصدر عنها مِن الأفاعيل الشاقّة كالنّوء بالأوقار الثقيلة وجرّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش حتّى إنّ أظماءها لتبلُغ العِشر فصاعدًا واكتفائها باليسير ورعيها لكلّ ما تيسّر مِن شَوك وشجر وغير ذلك ممّا لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما شاء ويقتادها بقطارها كلّ صغير وكبير.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها كلّ لحظة بالليل والنهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعًا سحيق المدى بلا عِماد ولا مِساك بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبًا رصينًا فهي راسخة لا تميل ولا تميد.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلّبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحًا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها مِن الخلائق. وقُرِئ: "سُطِّحَتْ"[2] مشدّدًا، وقُرِئت الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلّم، وحذفِ الراجع المنصوب.[3] والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبّر والاعتبار إلى كيفيّة خَلْق هذه المخلوقات الشاهدة بحقّيّة البعث والنشور ليرجعوا عمّا هم عليه مِن الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك ويستعدّوا للقائه بالإيمان والطاعة.

---

١ وفي هامش م: بدل مِن قوله: "إلى الإبل". «منه».
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون الرشيد والحسن وسعيد بن جُبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٥و] و"الفاء" في قوله تعالى: / ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما ينبئ عنه الإنكار السابق مِن عدم النظر، أي: فاقتصر على التذكير ولا تُلحّ عليهم ولا يُهمنّك أنّهم لا ينظرون ولا يتذكّرون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقرير له وتحقيقٌ لمعنى الإنذار، أي: لست بمتسلِّط عليهم تُجبرهم على ما تُريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق، ٥٠/٤٥]. وقُرئ بـ"السين" على الأصل،[١] وبالإشمام،[٢] وقُرئ بفتح "الطاء".[٣] قيل: هي لغة بني تميم، فإنّ "سيطر" عندهم متعدٍّ، ومنه قولهم: "تسيطَر".[٤]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّ مَن تولّى منهم فإنّ لله تعالى الولايةَ والقهر.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الذي هو عذاب جهنّم. وقيل: استثناء متّصل مِن قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر إلّا مَن انقطع طمعك مِن إيمانه وتولّى فاستحقّ العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراضٌ.[٥] ويعضد الأوّل أنّه قُرئ: "أَلَا"[٦] على التنبيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر، أي: إنّ إلينا رجوعَهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وجَمْع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراده فيما سَبَق باعتبار لفظها. وقُرئ: "إِيَّابَهُمْ"[٧] على أنّه "فِيعَال" مصدر "فَيْعَلَ" مِن الإياب، أو "فِعَّال" مِن "أوّب" كـ"فِسَّار" مِن "فَسَّرَ"، ثمّ قيل: "إيوابًا" كـ"دِيوان" في "دِوَّان"، ثمّ قُلبت الواو ياءً فأُدغمت الياء الأولى في الثانية.

---

١ قرأ بها هشام، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسين والصاد. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٨.
٢ قرأ بها خلف عن حمزة، وقرأ خلّاد بالإشمام وبالصاد الخالصة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٨.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن قُطيب واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٠.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٠.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.
٧ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المَحشَر لا على غيرنا، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرُّتبة لا في الزمان، فإنّ الترتّب الزماني بين إيَابهم وحسابهم لا بين كون إيَابهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى، فإنّهما أمران مستمرّان.

وفي تصدير الجملتين بـ﴿إِنَّ﴾ وتقديمِ خبرها وعطفِ الثانية على الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدةِ لبُعد منزلة الحساب في الشدّة مِن الإنباء عن غاية السخط الموجِب لتشديد العذاب ما لا يخفى.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الغاشية يُحاسِبه الله تعالى حسابًا يسيرًا».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٢٩ (الغاشية، ١/٨٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٣/٤ (الغاشية، ١/٨٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الغاشية

مكيةٌ بلا خلاف، وعِدَّةُ آياتها سِتٌّ وعشرون كذلك، وكان ﷺ كما أخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير يقرؤها في الجمعة مع سورتها[1].

ولما أشار سبحانه فيما قبلُ إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً، بَسَطَ الكلامَ هاهنا فقال عزَّ قائلاً:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ قيل: «هل» بمعنى «قد» وهو ظاهرُ كلام قُطْرب حيث قال: أي: قد جاءك يا محمدُ حديثُ الغاشية. والمختار أنه للاستفهام، وهو استفهامٌ أريد به التعجيبُ مما في حَيِّزه، والتشويقُ إلى استماعه، والإشعارُ بأنه من الأحاديث البديعة التي حَقُّها أن تتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقُّنها الوعاة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على امرأةٍ تقرأ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ فقام عليه الصلاة والسلام يستمعُ ويقول: «نعم قد جاءني»[2].

«والغاشيةُ»: القيامة، كما قال سفيان والجمهور، وأُطلق عليها ذلك لأنها تغشى الناسَ بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها.

---

(١) مسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٨٤، وهو عند أحمد (١٨٣٨٣)، وسلف ص١٠٢ من هذا الجزء.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو مرسل.

وقال محمد بن كعب وابن جبير: هي النار، من قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وقولِه سبحانه: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. وليس بذاك، فإنَّ ما سيروى(١) من حديثها ليس مختصًّا بالنار وأهلها، بل ناطقٌ بأحوال أهل الجنة أيضاً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ المرفوعُ مبتدأٌ، وجاز الابتداءُ به وإن كان نكرةً؛ لوقوعه في موضع التنويع، وقيل: لأنَّ تقديرَ الكلام: أصحابُ وجوه. والخبرُ ما بعد، والظرفُ متعلِّقٌ به، والتنوينُ عِوَضٌ عن جملةٍ أشعرت بها الغاشية، أي: يومَ إذ غشيت، والجملةُ إلى قوله تعالى: (مَبْثُوثَةٌ) استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن سؤالٍ نشأ من الاستفهام التشويقي، كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام: ما أتاني حديثُها، ما هو؟ فقيل: «وجوهٌ» إلخ؛ قال ابن عباس ﵄: لم يكن أتاهُ ﷺ حديثُها، فأخبره سبحانه عنها فقال جلَّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

والمراد بـ «خاشعة»: ذليلة، ولم توصف بالذُّلِّ ابتداءً؛ لما في وَصْفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكُّم، وأنها لم تخشَعْ في وقتٍ ينفعُ فيه الخشوع، وكذا حالُ وَصْفها بالعمل في قوله سبحانه: ﴿عَامِلَةٌ﴾ على ما قيل، وهو وقوله تعالى: ﴿نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ خبران آخران لـ «وجوه» إذ المراد بها أصحابها، وفي ذلك احتمالاتٌ(٢) أُخر ستأتي إن شاء الله تعالى.

أي: عاملةٌ في ذلك اليوم تعبةٌ فيه، وذلك في النار على ما روي عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة، وعملُها فيها على ما قيل جَرُّ السلاسل والأغلال، والخوضُ فيها خوضَ الإبل في الوحل، والصعودُ والهبوطُ في تلالها وَوِهَادها، وذلك جزاءُ التكبُّر عن العمل وطاعة الله تعالى في الدنيا.

وعن زيد بن أسلم أنه قال: أي: عاملةٌ في الدنيا، ناصبةٌ فيها؛ لأنها على غير هدًى، فلا ثمرةَ لها إلا النَّصَب، وخاتمته النار. وجاء ذلك في روايةٍ أخرى عن ابن

(١) في (م): ما سيرى.
(٢) في (م): الاحتمالات.

عباس وابن جبير أيضاً. والظاهرُ أنَّ الخشوع عند هؤلاء باقٍ على كونه في الآخرة، وعليه ف «يومئذ» لا تَعلُّقَ له بالوصفين معنًى، بل متعلّقهما في الدنيا، ولا يخفى ما في هذا الوجه من البعد، وظهورُ أنَّ العملَ لا يكون في الآخرة ـ بعد تسليمه ـ لا يجدي نفعاً في دَفْعِ بُعْده.

وقال عكرمة: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة. والظاهرُ أنَّ الخشوعَ على ما مرَّ، ولا يخفى ما في جَعْلِ المُحاط باستقباليين ماضويًّا من البعد.

وقيل: الأوصاف الثلاثةُ في الدنيا، والكلامُ على منوال:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ[1]

أي: ظهر لهم يومئذٍ أنها كانت خاشعةً عاملةً ناصبةً في الدنيا من غير نفع، وأما قبل ذلك اليوم فكانوا يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً، وهؤلاء النُّسَّاكُ من اليهود والنصارى كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس[2]، ويشمل غيرَهم مما شاكلهم من نُسَّاك أهل الضلال، وهذا الوجهُ أبعدُ من أخويه.

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ متناهيةً في الحرِّ، من حَميتِ النارُ: إذا اشتدَّ حَرُّها، خبرٌ آخرُ ل «وجوه».

وقيل: «خاشعةٌ» صفةٌ لها، وما بعدُ أخبار. وقيل: الأولان صفتان، والأخيران خبران. وقيل: الثلاثةُ الأُوَلُ صفات، وهذه الجملةُ هي الخبر، والكلُّ كما ترى.

وجُوِّزَ أن يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافاً مبيِّناً لتفاصيل أحوالها.

وقرأ ابن كثير في رواية شبل، وحميد وابن محيصن: «عاملةً ناصبةً» بالنصب على الذَّم[3].

---

(١) البيت لزائدة بن صعصعة، وعجزه: ولم تَجِدي من أن تُقرّي به بدًّا، وسلف ١٦/ ١٦٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢.

وقرأ أبو رجاء وابن محيصن ويعقوب وأبو عمرو وأبو بكر: «تُصْلَى» بضم التاء[١]. وقرأ خارجة: «تُصَلَّى» بضم التاء وفتح الصاد مشدّد اللام للمبالغة[٢].

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ بلغت إناها، أي: غايتها في الحَرِّ، فهي متناهية فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] وهو التفسيرُ المشهور، وقد روي عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

وقال ابن زيد: أي حاضرة لهم، من قولهم أَنِيَ الشيءُ: حَضَرَ. وليس بذاك.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ بيانٌ لطعامهم إثر بيان شرابهم، والضريعُ ـ كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ـ الشِّبْرِقُ اليابسُ[٣]. وهي ـ على ما قال عكرمة ـ شجرةٌ ذاتُ شَوْكٍ لاطئةٌ بالأرض.

وقال غير واحد: هو جنسٌ من الشَّوك، ترعاه الإبل رَطْباً، فإذا يبِس تحامَتْهُ، وهو سمٌّ قاتلٌ، قال أبو ذؤيب:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى ... وصارَ ضَريعاً بانَ عنه النَّحائصُ[٤]

وقال ابن عَيزارة[٥] الهذلي يذكر إبلاً وسوءَ مرعى:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريع فكلُّها ... حَدْباءُ داميةُ اليدين حَرُودُ[٦]

---

(١) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو وأبي بكر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٢، والكشاف ٤/ ٢٤٦، والبحر ٨/ ٤٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.

(٤) لم نقف عليه في ديوان الهذليين، وهو في الكشاف ٤/ ٢٤٦، وتفسير الرازي ٣١/ ١٥٣.
وجاء في هامش الأصل: النحائص جمع نحوص وهي الأتان الحامل. منه. وفي القاموس (نحص): هي الناقة الشديدة السمن.

(٥) في الأصل: عزارة، وفي (م): غرارة. والمثبت هو الصواب. وعيزارة أمُّه، واسمه: قيس بن خويلد، أخو بني صاهلة، والبيت من قصيدة في رثاء أخيه لأبيه وأمه الحارث بن خويلد. شرح أشعار الهذليين للسكري ٣/ ٥٨٩ و٥٩٧.

(٦) البيت في ديوان الهذليين ٣/ ٧٣. وجاء في هامش الأصل: هزم بالزاي المعجمة: ما تكسَّر منه، وناقة حدباء: بادٍ عظمُ وركها. ويروى: جرباء بالجيم والراء من الجرب معروف. والحرود من النوق القليلة اللبن.

وقال بعض اللُّغويين: الضريعُ: يبيسُ العَرْفَج إذا انحطم. وقال الزجاج: نبتٌ كالعوسج. وقال الخليل: نبتٌ أخضرُ مُنْتِنُ الريح يرمي به البحرُ(١).

والظاهر أنَّ المرادَ ما هو ضريعٌ حقيقةً. وقيل: هو شجرةٌ ناريةٌ(٢) تُشبه الضريع. وأنت تعلم أنه لا يُعجِزُ الله تعالى الذي أخرج من الشجر الأخضر ناراً أن يُنبتَ في النار شجرَ الضريع، نعم يؤيِّدُ ما قيل ما حكاه في «البحور الزاخرة»(٣) عن البغوي عن ابن عباسٍ يرفعه: «الضريعُ: شيءٌ في النار شبه الشوك، أَمَرُّ من الصَّبْر، وأنتنُ من الجيفة، وأشدُّ حَرًّا من النار»(٤) فإن صَحَّ فذاك.

وقال ابن كيسان: هو طعامٌ يَضْرَعون عنده ويذلُّون، ويتضرَّعون إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه، فسُمِّيَ بذلك. وعليه يحتملُ أن يكون شجراً وغيره.

وعن الحسن وجماعة: أنه الزَّقُّوم.

وعن ابن جبير: أنه حجارةٌ في النار.

وقيل: هو وادٍ في جهنم، أي: ليس لهم طعامٌ إلا من ذلك الموضع، ولعلَّه هو الموضع الذي يسيلُ إليه صديدُ أهل النار وهو الغِسْلين، وعليه يكون التوفيقُ بين هذا الحصر والحصر في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] ظاهراً بأن يكونَ طعامُهم من ذلك الوادي هو الغِسْلين الذي يسيلُ إليه، وكذا إذا أُريد به ما قاله ابن كيسان واتحد به، وقد يتَّحدُ بهما عليه أيضاً الزقوم، واتِّحادُهُ بالضَّريع ـ على القول بأنه شجرةٌ ـ قريبٌ.

وقيل في التوفيق: إنَّ الضريعَ مجازٌ أو كنايةٌ أُريد به طعامٌ مكروهٌ حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذُّ رعيَ الشوك، فلا ينافي كونه زَقُّوماً أو غِسْليناً.

---

(١) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٨/ ٤٦١، وقول الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣١٧: الضريع: الشبرق، وهو جنس من الشوك، إذا كان رطباً فهو شبرق، فإذا يبس فهو الضريع.

(٢) أي: من الأشجار التي خلقها الله في النار. حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٣.

(٣) البحور الزاخرة عن علوم الآخرة، لشمس الدين محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، المتوفى سنة (١١٨٨). هدية العارفين ٢/ ٣٤٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٩، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٢، وسنده واهٍ كما ذكر السيوطي.

وقيل: إنه أُريد أن لا طعام لهم أصلاً؛ لأنَّ الضريعَ ليس بطعامٍ للبهائم، فضلاً عن الناس، كما يقال: ليس لفلانٍ ظِلٌّ إلا الشمس، أي: لا ظِلَّ له. وعليه يُحملُ قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٤] فلا مخالفةَ أصلاً.

وقيل: إنَّ الغِسْلين وهو الصديد في القدرة الإلهية أن تجعله على هيئة الضريع والزقوم، فطعامهم الغِسْلين والزقوم اللذان هما الضريع. ولا يخفى تعسّفُه على الرضيع.

وقد يقال في التوفيق على القول بأنَّ الثلاثةَ متغايرةٌ بالذات: إنَّ العذابَ ألوانٌ، والمعذَّبون طبقاتٌ، فمنهم أَكَلَةُ الزَّقُّوم، ومنهم أَكَلَةُ الغِسْلين، ومنهم أَكَلَةُ الضَّريع، لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝﴾ إما في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ «ضريع»، والمعنى: إنَّ طعامهم من شيءٍ ليس من مطاعم الإنس، وإنما هو شوكٌ، والشوكُ مما ترعاه الإبل وتتولَّعُ به، وهذا نوعٌ منه تنفرُ عنه ولا تقربه، ومنفعتا الغذاء منفيَّتان عنه، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسِّمَن في البدن. وإن شئت فقل: إنه من شيءٍ مكروهٍ يُضْرَعُ عنده ويُتَضَرَّعُ إلى الله تعالى، ويُطلَبُ منه سبحانه الخلاص عنه، وليس فيه منفعتا الغذاء أصلاً.

وإما في محلِّ رَفْعٍ صفةٍ لـ «طعام» المقدَّر؛ إذ التقدير: ليس لهم طعامٌ إلا طعامٌ من ضريع. والمعنى قريبٌ مما ذكر، ولا يجوز كونه صفةً للمذكور؛ إذ لا يدلُّ حينئذٍ على أنَّ طعامَهم منحصرٌ في الضريع، بل يدلُّ على أنَّ ما لا يسمنُ ولا يغني من طعامهم منحصرٌ فيه، ويفسدُ المعنى.

وإما لا محلَّ له من الإعراب، على أنه مستأنفٌ. والأول أظهر.

ويُروى أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا لَمَّا سمعوا صَدْرَ الآية: إنَّ الضريع لَتَسْمَنُ عليه إبلُنا. فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ إلخ[1]. قيل: فلا يخلو إما أن يتكذَّبوا ويتعنَّتوا

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٥.

بذلك ـ وهو الظاهرُ ـ فيُرَدُّ قولهم بنفي السِّمَن والشِّبَع، وإما أن يُصدِّقوا، فيكون المعنى: إنَّ طعامهم من ضريعٍ ليس من جنس ضريعكم، إنما هو غيرُ مُسْمِنٍ ولا مُغْنٍ من جوع. وعلى الأول هو صفةٌ مؤكِّدةٌ ردًّا لما زعموه، لا كاشفةٌ؛ إذ لا خفاءَ، وعلى الثاني هو صفةٌ مخصِّصةٌ.

وأيًّاما كان فتنكيرُ الجوع للتحقير، أي: لا يغني من جوعٍ ما، وتأخيرُ نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل، والتوسُّلِ به إلى التصريح بنفي كِلَا الأمرين؛ إذ لو قُدِّمَ لما احتيج إلى ذِكْرِ نفي الإسمان ضرورةَ استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، ولذلك كُرِّرَ لا لتأكيد النفي.

وفي «الإرشاد» أنَّ نفيَ الأمرين عنه ليس على أنَّ لهم استعداداً للشِّبَع والسِّمَن، إلا أنه لا يفيدُ شيئاً منهما، بل على أنه لا استعدادَ من جهتهم، ولا إفادةَ من جهته. وتحقيقُ ذلك: أنَّ جوعَهم وعَطَشَهم ليسا من قبيل ما هو المعهودُ منهما في هذه النشأة من حالةٍ عارضةٍ للإنسان عند استدعاء الطبيعة لِبَدَل ما يتحلَّل من البدن مشوِّقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذُّ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيدُ منهما قوةً وسِمَناً عند انهضامهما، بل جوعُهم عبارةٌ عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيءٍ كثيفٍ يملؤها ويُخرِجُ ما فيها من اللَّهَب، وأما أن يكون لهم شوقٌ إلى مطعوم ما، والتذاذٌ به عند الأكل، واستغناءٌ به عن الغير، واستفادةُ قوة، فهيهات. وكذا عَطَشُهُمْ عبارةٌ عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيءٍ مائعٍ باردٍ ليُطفؤوه من غير أن يكونَ لهم التذاذٌ بشُرْبه، أو استفادةُ قوةٍ به في الجملة، وهو المعني بما روي أنه تعالى يُسلِّطُ عليهم الجوعَ بحيث يُضطرُّون إلى أكل الضَّريع، فإذا أكلوه سلَّط عليهم العطش، فاضطرُّوا إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطعُ أمعاءهم[1]. أعاذنا الله تعالى وسائر المسلمين من ذلك. انتهى.

وهو خلافُ الظاهر، ومثلُهُ لا يُقالُ عن الرأي، وليس له فيما وقفنا عليه مستندٌ يُؤوَّل لأجله الظواهر، فالحقُّ أنَّ لهم جوعاً وعطشاً وشهوةً إلى الطعام والشراب،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/١٤٩.

كما أنَّ للجائع والعطشان في الدنيا شهوةً إليهما، لكنهما لهم هناك قد بلغا الغايةَ بتسليط الله تعالى عزَّ وجلَّ بدون سببٍ عاديٍّ على نحو ما في الدنيا، فيضطرُّون لذلك إلى الضريع والحميم، كما يضطرُّ مَنْ أَفرطَ فيه الجوعُ والعطشُ في الدنيا إلى تناول الكَريه البَشِعِ من المطعوم والمشروب، لكنهم لا ينتفعون بما يتناولونه، بل يزدادون به عذاباً فوق العذاب، نسأل الله تعالى العفو والعافية بِمَنِّه وكَرَمه.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ شروعٌ في رواية حديث أهل الجنة، وتقديمُ حكاية أهل النار لأنه أَدخلُ في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأنَّ حكايةَ حُسْنِ حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكيَّ حُسْناً وبهجةً، والكلامُ في إعرابه نظيرُ ما تقدم، وإنما لم تُعطَفْ هذه الجملةُ على تلك الجملة، إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما.

والناعمةُ إما من النعومة، وكنَى بها عن البهجة وحُسْن المنظر، أي: وجوهٌ يومئذٍ ذاتُ بهجةٍ وحُسْنٍ كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] أو من النعيم، أي: وجوهٌ يومئذٍ متنعِّمة.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ أي: لعملها الذي عملته في دار الدنيا، وهو متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةٌ ۝٩﴾، والتقديمُ للاعتناء مع رعاية الفاصلة، واللامُ ليست للتعليل، بل مثلُها في: رضيت بكذا، فكأنه قيل: راضيةٌ بسعيها. وذكر بعضُ المحقِّقين أنها مقوِّيةٌ لتعدِّي الوصف بنفسه، ولذا قال سفيانُ في ذلك ـ كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم ـ: رَضِيتْ عملَها[1]. ورضاها به كنايةٌ أو مجازٌ عن أنه محمودُ العاقبة، مُجازًى عليه أعظمَ الجزاء وأحسَنَهُ.

وقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: لثواب سَعْيها راضية.

وجُوِّزَ كونُ اللام للتعليل، أي: لأجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية، حيث أُوتيتْ ما أُوتيتْ من الخير. وليس بذاك.

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٤٢.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ مرتفعةِ المحل، أو عَلِيَّةِ القَدْر، فالعلوُّ إما حِسِّيٌّ أو معنويٌّ، وجمع أبو حيان[١] بينهما.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ خطابٌ لكلِّ مَنْ يصلحُ للخطاب، أو هو مُسنَدٌ إلى ضمير الغائبة المؤنَّثة، وهو راجعٌ للوجوه، على أنَّ المراد بها أصحابها، أو الإسنادُ مجازيٌّ، وكذا يقال فيما قبل، وأشار بعضٌ إلى أنَّ في الآية صنعةَ الاستخدام[٢] اختياراً؛ لأنَّ المرادَ بالوجوه أولاً حقيقتُها، وعند إرجاع الضمير إليها ثانياً أصحابُها، فهم الذين لا يسمعون.

﴿فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾ أي: لغواً، فهي مصدرٌ بمعناه، ويجوز كونها صفةَ كلمةٍ محذوفةٍ على أنها للنسب، أي: كلمةً ذاتَ لغوٍ، وجُوِّزَ على تقدير كونها صفةً كونُ الإسناد مجازيًّا لأنَّ الكلمةَ ملغوٌّ بها لا لاغية. ويجوز أن تكونَ صفة «نفس» محذوفةً، أي: لا تسمعُ فيها نفساً لاغيةً، وجَعْلُها مسموعةً لِوَصْفِها بما يُسمَعُ، كما تقول: سمعتُ زيداً يقول كذا. وجُوِّزَ أن يكون ذلك على المجاز في الإسناد أيضاً.

وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلافٍ عنهم «لا تُسْمَعُ» بتاء التأنيث مبنيًّا للمفعول «لاغيةٌ» بالرفع[٣].

وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك، إلا أنهم قرؤوا بالياء التحتية[٤]؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ مع وجود الفاصل. والجحدريُّ كذلك إلا أنه نصب «لاغيةً»، على معنى: لا يُسْمَع فيها ـ أي: أحدٌ ـ لاغيةً، من قولك: أَسمعْتُ زيداً[٥].

---

(١) في البحر المحيط ٨/ ٤٦٣.

(٢) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٣) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن نافع، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٣.

(٤) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٣. وذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٦٩ عن المفضل والجحدري أنهما قرأا: «لا يَسمع» بياء الغيبة مفتوحة.

﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾﴾ قيل: يجري ماؤها ولا ينقطع، وعدمُ الانقطاع إما من وَصْفِ العين؛ لأنها الماء الجاري، فَوَصْفُها بالجريان يدلُّ على المبالغة كما في «نار حامية»، وإما من اسم الفاعل، فإنه للاستمرار بقرينة المقام. والتنكيرُ للتعظيم، واختار الزمخشريُّ[(١)] كونه للتكثير كما في ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ [التكوير: ١٤] أي: عيونٌ كثيرةٌ تجري مياهها.

﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾﴾ رفيعةُ السَّمك أو المقدار، وقيل: مخبوءةٌ، من: رفعتُ لك كذا، أي: خبأته.

﴿وَأَكۡوَابٞ﴾ وقِداحٌ لا عُرى لها.

﴿مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾﴾ أي: بين أيديهم، وقيل: على حافَّات العيون.

وجُوِّزَ أن يُراد: موضوعةٌ عن حَدِّ الكبار، أوساطٌ بين الصِّغَر والكِبَر، كقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان: ١٦]. ولا يخفى بُعْدُهُ.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ ووسائدُ؛ قال زهير:

كهولاً وشُبَّاناً حساناً وجوهُهُمْ ... على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارقِ[(٢)]

جمع نُمْرُقة بضمِّ النون والراء، وبكسرهما، وبفتحهما[(٣)]، وبغير هاء.

﴿مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾﴾ صُفَّ بعضُها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها. وقال الكلبي: وسائدُ موضوعةٌ بعضُها إلى جَنْبِ بعضٍ، كالشيءِ الذي جُعِل صفًّا، أينما أراد أن يجلسَ المؤمنُ جلس على واحدةٍ واستند إلى أخرى، وعلى رأسه وصائفُ كأنهنَّ الياقوتُ والمرجان.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ وبُسُطٌ فاخرةٌ كما قال غير واحد. وقال الفراء: هي الطَّنافس التي لها خَمْلٌ رقيق[(٤)]. وقال الراغب: إنها في الأصل ثيابٌ محبَّرةٌ منسوبةٌ إلى موضع، ثم

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٤٧.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٤، والبحر ٨/ ٤٦١.

(٣) في (م): وفتحهما.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٨.

استُعيرت للبُسط، واحدها زِرْبيةٌ مثلَّثةَ الزاي[١].

ولم يفرق في «الصحاح»[٢] بين الزرابيِّ والنمارق. والظاهرُ الفرقُ، نعم قيل: قد جاء نمارق بمعنى الزرابي، ومنه:

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق[٣]

لظهور أنَّ الوسائد لا يُمشَى عليها عادةً.

﴿مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ مبسوطةٌ أو مفرَّقةٌ في المجالس.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما فُصِّلَ من حديث الغاشية، وما هو مبنيٌّ عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره.

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال: لمَّا نَعَتَ الله تعالى ما في الجنة، عَجِبَ من ذلك أهلُ الضلالة، فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ إلخ[٤]. ويرجع هذا في الآخرة إلى إنكار البعث كما لا يخفى.

والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، والفاءُ للعَطْفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، وكلمة «كيف» منصوبةٌ بما بعدها على أنها حالٌ من مرفوع «خُلقت» كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] معلَّقةٌ لفعل النظر، والجملةُ بدلُ اشتمالٍ من الإبل، وقد تُبدَلُ الجملةُ وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها، كقولهم: عرفتُ زيداً أبو مَنْ هو؟ على أصحِّ الأقوال، على أنَّ العربَ قد أدخلتْ «إلى» على «كيف» بلا واسطة إبدال، كما أدخلت عليها «على»، فحُكي عنهم أنهم قالوا: انظر إلى كيف يصنع، كما حكي عنهم أنهم قالوا: على كيفَ تبيعُ الأحمرين. وذكر أبو حيان

(١) مفردات الراغب (زرب).
(٢) مادة (زرب).
(٣) سلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة هود.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٤٣، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٣٨-٣٣٩.

في «البحر» و«التذكرة» وغيرهما أنه إذا عُلِّقَ الفعل عما فيه الاستفهام، لم يبقَ الاستفهامُ على حقيقته[١].

وقيل: «كيف» بدلٌ من «الإبل». وتعقَّبه في «المغني»[٢] بما في بعضه نظر.

وجَوَّزَ في «مجمع البيان» كونها في موضع نصبٍ على المصدر[٣]، وهو كما ترى.

والإبل: يقع على البُعْران الكثيرة، ولا واحدَ له من لفظه، وهو مؤنَّثٌ، ولذا إذا صُغِّر دخلته التاء، فقالوا: أُبيلةٌ، وقالوا في الجمع آبال، وقد اشتقُّوا من لفظه فقالوا: أَبَّلَ وتأبَّلَ الرجلُ. وتعجَّبوا من هذا الفعل على غير قياسٍ فقالوا: ما آبَلَ زيداً. ولم يحفظ سيبويه فيما قيل اسماً جاء على «فِعِلٍ» بكسر الفاء والعين غيرَ إِبِلٍ[٤].

أي: أينكرون ما أُشيرَ إليه من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قُدْرة الله عزَّ وجلَّ، فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصْب أعينهم يستعملونها كلَّ حينٍ كيف خُلقتْ خَلْقاً بديعاً، معدولاً به عن سَنَنِ خَلْقِ أكثر أنواعِ الحيوانات، في عِظَم جُثَّتها، وشِدَّةِ قوَّتها، وعجيبِ هيئاتها اللائقة بتأتِّي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنَّوء بالأوقار[٥] الثقيلة وهي باركةٌ، وإيصالها الأثقال الفادحة إلى الأقطار لنازحة، وفي صَبْرها على الجوع والعطش حتى إنَّ ظِمْئها[٦] ليبلغ العِشْرَ - بكسرٍ فسكون، وهو ثمانيةُ أيامٍ بين الوِرْدَين، وربما يجوز ذلك، وتُسمَّى حينئذٍ الحوازى بالحاء المهملة والزاي - واكتفائها باليسير، ورَعْيها لكلِّ ما يتيسَّر من شوكٍ وشجرٍ وغير ذلك مما لا يكادُ يرعاه سائرُ البهائم، وفي انقيادها مع ذلك

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦٤.

(٢) مغني اللبيب ص ٢٧٣.

(٣) مجمع البيان ٣٠/ ١١٣.

(٤) الكتاب ٣/ ٥٧٤.

(٥) جمع وقر، وهو الحمل الثقيل، وتنوء به، أي: تقوم به وترفعه. حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٤.

(٦) الظِّمْء بالكسر: ما بين الشربتين والوردين. القاموس (ظمأ).

للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء، ويقتادها بقطارها كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، وفي تأثُّرها بالصوت الحَسَنِ على غَلِظِ أكبادها، إلى غير ذلك.

وخُصَّتْ بالذكر لأنها أعجبُ ما عند العرب من الحيوانات التي هي أشرفُ المركبات وأكثرها صُنْعاً، ولهم على أحوالها أتمُّ وقوفٍ.

وعن الحسن أنها خُصَّتْ بالذكر لأنها تأكلُ النَّوى والقَتّ، وتُخرج اللَّبنَ. وقيل له: الفيل أعظمُ في الأعجوبة. فقال: العربُ بعيدةُ العهد بالفيل، ثم هو خنزيرٌ لا يُؤكَلُ لحمه، ولا يُركَبُ ظهره ـ أي: على نحو ما يُركَبُ ظهرُ البعير من غير مشقَّةٍ في ترييضه ـ ولا يُحلَبُ دَرُّه[(١)].

وقال أبو العباس المبرِّد: الإبلُ هنا السحاب؛ لأنَّ العربَ قد تُسمِّيها بذلك؛ إذ تأتي أرسالاً كالإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وهي في هيئاتها أحياناً تشبه الإبل، يعني أنَّ إرادته منها هنا على طريق التشبيه والمجاز، وكأنه كما قال الزمخشريُّ[(٢)] لم يَدعُ القائل بذلك إلا طلبُ المناسبة بين المتعاطفات على ما يقتضيه قانون البلاغة، وهي حاصلةٌ مع بقاء الإبل في عَطَنها.

قال الإمام: التناسب فيها أنَّ الكلامَ مع العرب وهم أهلُ أسفارٍ على الإبل في البراري، فربما انفردوا فيها، والمنفردُ يتفكَّرُ لعدم رفيقٍ يُحادثه، وشاغلٍ يشغله، فيتفكَّرُ فيما يقعُ عليه طَرْفُهُ، فإذا نظر لِمَا معه رأى الإبل، وإذا نظر لما فوقه رأى السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً رأى الجبال، وإذا نظر لأسفلَ رأى الأرض، فأُمرَ بالنظر في خلوته لما يتعلَّقُ به النظر من هذه الأمور، فبَيْنَها مناسبةٌ بهذا الاعتبار[(٣)].

وقال عصام الدين: إنَّ خيال العرب جامعٌ بين الأربعة؛ لأنَّ مالَهُمُ النفيسَ الإبلُ، ومدارَ السَّقي لهم على السماء، ورعيَهم في الأرض، وحفظَ مالهم

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٦.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢٤٧.
(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٥٩، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٥٤، وعنه نقل المصنف.

بالجبال، وما ألطفَ ذِكْرَ الإبل بعد ذكر الضريع، فإنَّ خُطورها بعده على طَرَف الثُّمام، وإذا صَحَّ ما روي من كلام قريش عند نزول تلك الآية، كان ذِكْرُها ألطفَ وألطفَ.

وقرأ الأصمعيُّ عن أبي عمرو: «إلى الإبْل» بسكون الباء(١).

وقرأ عليٌّ كرَّمَ الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما: «الإبلّ» بتشديد اللام، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي(٢)، وقالوا: إنها السحاب، عن قومٍ من أهل اللغة.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها ليلاً ونهاراً ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ رَفْعاً سحيقَ المدى بلا عمادٍ ولا مساك، بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمائها وأشجارها.

﴿كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ وُضِعَتْ وَضْعاً ثابتاً يتأتَّى معه ارتقاؤها، فلا تميلُ ولا تميدُ، ويمكن الرُّقيُّ إلى ذُراها(٣).

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلَّبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ سَطْحاً بتوطئةٍ وتمهيدٍ وتسويةٍ وتوطيدٍ حسبما يقتضيه صلاحُ أمور أهلها، ولا ينافي ذلك القولُ بأنها قريبةٌ من الكرة الحقيقية؛ لمكان عِظَمها.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة وابن أبي عبلة: «خَلَقْتُ» «رَفَعْتُ» «نَصَبْتُ» «سَطَحْتُ» بتاء المتكلِّم مبنيًّا للفاعل(٤)، والمفعولُ ضميرٌ محذوفٌ، وهو العائدُ إلى المُبْدَلِ منه بَدَلَ اشتمال، أي: خَلَقْتُها رَفَعْتُها نَصَبْتُها سَطَحْتُها.

وقرأ الحسن وهارون الرشيد: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء(٥)، والمعنى:

(١) القراءات الشاذة ص١٧٢، والبحر ٨/ ٤٦٤.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) في (م): دارها.
(٤) القراءات الشاذة ص١٧٢، والمحتسب ٢/ ٣٥٦، والبحر ٨/ ٤٦٤.
(٥) القراءات الشاذة ص١٧٢، والبحر ٨/ ٤٦٤.

أفلا ينظرون نظرَ التدبُّر والاعتبار إلى كيفية خَلْقِ هذه المخلوقات الشاهدة بحَقِّيةِ البعث والنشور؛ ليرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار والنفور، ويسمعوا إنذارك، ويستعدُّوا للقائه بالإيمان والطاعة.

وجُوِّزَ أن يُحمَلَ النظرُ على الإبصار، ويكون فيه دعوى ظهور المطلوب، بحيثُ يظهرُ بمجرَّد إبصار هذه المخلوقات. وهو خلافُ الظاهر.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما يُنبئ عنه الإنكار السابق من عدم النظر، أي: فاقتصرْ على التذكير، ولا تُلِحَّ عليهم، ولا يهمَّنَّكَ أنهم لا ينظرون ولا يتذكَّرون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ تعليلٌ للأمر. وقوله سبحانه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تقريرٌ له، وتحقيقٌ لمعنى الإنذار، أي: لستَ بمتسلِّطٍ عليهم تُجبرهم على ما تريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

وقرأ الجمهور: «بمصيطر» بالصاد وكسر الطاء[(١)]، والأصل السين، والصاد بدلٌ منه، فإنه من السَّطر بمعنى التسلُّط، يقال: سطر عليه: إذا تسلَّط.

وقرأ حمزة في روايةٍ بإشمام الصاد زاياً[(٢)]. وهارون بفتح الطاء[(٣)]، وهي لغةُ تميم، و«سيطر» متعدٍّ عندهم، ويدلُّ عليه قولهم «تسيطر»؛ لمكان المطاوعة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قيل: استثناءٌ منقطعٌ، و«إلا» فيه بمعنى «لكن» و«مَنْ» موصولةٌ مبتدأ، وما بعدها صلة، والعائدُ الضمير المستتر فيه. وقوله سبحانه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ خبرُ المبتدأ، والفاء لتضمُّنِ المبتدأ معنى الشرط، نحو: الذي يأتيني فله درهمٌ. وجَعْلُ «مَنْ» شرطية يُبعده وجودُ الفاء فيما يصلحُ لجوابيَّتها بدونها، وتقدير: فهو يعذبه، تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

---

(١) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٣٧٨ وقرأ هشام بالسين، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد زاياً، وسيذكرها المصنف لاحقاً.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٣٧٨، وهي قراءة حمزة بخلف عن خلاد.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤٨، والبحر ٨/ ٤٦٤.

وأيّاما كان فمن المنقطع ما يقع بعد «إلا» فيه جملة، أي: لكن مَنْ أعرضَ وأقام على الكفر منهم يُعذِّبه الله تعالى العذابَ الأكبر، وهذا عذابُ الآخرة في النار، فإنه الأكبر، وعذابُ الدنيا بالنسبة إليه أصغرُ.

وجعل الزمخشريُّ الانقطاعَ على معنى: لستَ بمستولٍ عليهم، لكن مَنْ تولَّى وكَفَرَ منهم فإنَّ تعالى الولاية عليه والقهر، فيُعذِّبه في نار جهنم[1].

ولم يُجعَلْ ـ على ما قيل ـ متصلاً لأنه يلزمُ عليه كونُه ﷺ مستولياً على مَنْ تولَّى، وقد حُصِرتِ الولايةُ به تعالى.

وجُوِّزَ اتصاله بأن يكون من ضمير «عليهم»، فيكونُ «مَنْ» في محلِّ جرٍّ تابعاً له، وتسلُّطُهُ ﷺ على المتولِّي باعتبار جهاده وقتله الذي وُعد به عليه الصلاة والسلام[2]. ولا ينافي حَصْرَ الولاية به تعالى؛ لأنه بأمره عزَّ وجلَّ، فكأنه قيل: لستَ عليهم بمسيطرٍ إلا على مَنْ تولَّى وأقام على الكفر، فإنك متسلِّطٌ عليه بما يُؤذَنُ لك من جهاده وقتله وسَبْيه وأَسْره، وبعد ذلك يُعذِّبه الله تعالى في جهنم، فيكونُ في الآية إيعادٌ لهم بالجهاد في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

وجُوِّزَ أن يكون إيعاداً بالجهاد فقط على أنَّ المراد بالعذاب الأكبر القتلُ وسبيُ النساء والأولاد، وسائرُ ما يترتَّبُ على الجهاد من البلايا، فيكونُ فيه إشارة إلى أنَّ هذه الأمة أكبرُ عذابهم في الدنيا ذلك، لا ما كان في الأمم السابقة من الخَسْفِ والمسخ ونحوهما. وأقيم «فيعذِّبه» إلخ مقام: فتكون عليه متسلِّطاً، إيذاناً بأنَّ ذلك من قِبَله عزَّ وجلَّ، حتى كأنه ﷺ لا دَخْلَ له فيه.

وقال عصام الدين: في كون الاستثناء منقطعاً إشكالٌ؛ لأنَّ المستثنى المنقطع هو المذكور بعد «إلا»، غير مُخرجٍ عن متعدِّدٍ قبله لعدم دخوله فيه، مخالف له في الحكم، وليس «مَنْ تولَّى وكَفَرَ» خارجاً عن قوله تعالى: (عَلَيْهِم) وليس حُكْمهم مخالفاً له.

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٨.

(٢) جاء في هامش الأصل: فلا يضر كون السورة مكية.

ثم أجاب بأنَّ الاستثناءَ المنقطعَ قد يكون لدفع توهُّم ناشئٍ مما سبق من غير أن يُخالف المستثنى منه في الحكم، فالواجبُ ذِكْرُ حُكْمٍ له ليُعلَمَ أنه ليس حُكْمه مخالفاً لحكم المستثنى منه، فكأنه هاهنا لِدَفْع توهُّم التعذيب، فتأمل.

وجُوِّزَ كون الاستثناء متصلاً من قوله تعالى: (فَذَكِّرْ)، و«مَنْ» موصولةٌ لا غير، والمراد بالعذاب استحقاقُ العذاب، أي: فذكِّر إلا مَن انقطعَ طَمَعُكَ من إيمانه وتولَّى، فاستحقَّ العذابَ الأكبرَ، وقوله: (إِنَّمَآ أَنتَ) إلخ على هذا اعتراضٌ.

ورُجِّحَ الانقطاعُ بأنَّ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم قرؤوا: «ألا» حرف تنبيه واستفتاح(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ تعليلٌ لتعذيبه تعالى إياهم بالعذاب الأكبر. وإياب مصدر آب، أي: رجع، أي: إنَّ إلينا رجوعهم بالموت والبعث، لا إلى أحدٍ سوانا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. وجَمْعُ الضميرِ فيه وفيما بعده باعتبار معنى «مَنْ» كما أنَّ إفراده فيما سبق باعتبار لفظها.

وقرأ أبو جعفر وشيبة: «إيَّابهم» بتشديد الياء(٢)؛ قال البطليوسي في كتاب «المثلثات»: هذه القراءةُ تحتملُ تأويلين:

أحدهما: أن يكون «إيّاب» بالتشديد فِعَّالاً من أوَّب على زنة فَعَّلَ، كَكَذَّبَ كِذَّاباً، وأصله إوَّاب، فلم يُعتدَّ بالواو الأولى حاجزاً لضعفها بالسكون، فأُبدل من الواو الثانية ياءً لانكسار الهمزة، فصار في التقدير: إوْيَاباً، ثم قلبت الأولى ياءً أيضاً لاجتماع ياءٍ وواوٍ وسكونِ إحداهما، ولأنَّ الواوَ الأولى إذا لم تمنع من انقلاب الثانية فهي أجدرُ بالانقلاب.

والثاني: أن يكون فِيْعالاً، وأصله إيْواباً، فأُعِلَّ إعلالَ «سَيِّد»(٣)، وفعله على هذا: أَيَّب، على وزن فَيْعَلَ، كَحَوْقَلَ حِيقالاً، من الإيَّاب، وأصله أَيْوَب فأُعِلَّ كما ذكرنا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٢، والمحتسب ٢/ ٣٥٧.
(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٥.
(٣) يعني أن أصله: سَيْوِد.

والوجهُ الأول أَقْيَسُ؛ لأنهم قالوا في مصدره: التأويب، والتفعيلُ مصدر فَعَّلَ لا فَيْعل، ومع ذلك فقد قالوا: هو سريعُ الأوبة والأيبة، فكأنهم آثروا الياء لخفَّتها. انتهى.

وقد ذكر هذين الوجهين الزمخشريُّ، إلا أنه في الأول منهما يُجوِّزُ أن يكونَ أصله إوَّاباً ـ فِعَّالاً ـ من أَوَّبَ، ثم قيل: إيواباً كديوان في دِوَّان، ثم فُعل به ما فُعِلَ بأصل «سَيِّد»[1]. وظاهره أنَّ الواوَ الأولى هي التي قُلبت أولاً ياءً، واعتُرض بأنَّ المقرَّرَ أنَّ الواو الأولى إذا كانت موضوعةً على الإدغام، وجاء ما قبلها مكسوراً، لا تُقلَبُ ياءً لأجل الكسر، كما في اخرِوَّاط مصدر اخروَّط، وأنَّ «ديواناً» إذا كان مذكوراً للقياس عليه لا للتنظير، لا يصلحُ لذلك؛ لنصِّهم على شذوذه، وكأنَّ البطليوسيَّ عَدَلَ إلى ما عَدَلَ لذلك.

وفي «الكشف» لو جُعِلَ مصدرَ فاعَلَ من الأوب فقد جاء فيه فِيعال، حتى قال بعضهم: إن فِعَالاً مخفَّفٌ عنه، لكان أظهر؛ لأنَّ فَيْعل لا يثبتُ إلا بثبت، والأول كالمنقاس، ومعنى المفاعلة حينئذٍ إما المبالغة، وإما مسابقة بعضهم بعضاً في الأوب، وأما جَعْلُهُ فِعَّالاً على ما قرَّر الزمخشريُّ فأبعدُ، إلى آخر كلامه.

وكونه مِن فاعَلَ جوَّزه ابن عطية[2] أيضاً، لكنه قال: ويصحُّ أن يكون من أَأْوَبَ[3] فيجيء إيواباً[4]، سُهِّلت همزته، وكان اللازمُ في الإدغام بردِّها إوَّاباً، لكن استحسنتْ فيه الياءُ على غير قياس.

فاعترضه أبو حيان بأنَّ قوله: وكان اللازمُ.. إلخ، ليس بصحيح، بل اللازمُ إذا اعتُبر الإدغام أن يكون إِيَّاباً؛ لأنه قد اجتمعت ياءٌ وهي المبدَلةُ من الهمزة

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٨.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥.

(٣) وقع رسمها في الأصل و(م) ومطبوع المحرر: أوب، والصواب ما أثبتناه، وهو الموافق لما في البحر ٨/ ٤٦٥ نقلاً عن ابن عطية، وأأوبَ على وزن أَفْعَلَ كـ: أَكْرَم. وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) والأصل: إِأْواب كـ: إكرام، فأبدت الهمزة الثانية ياء لسكونها بعد همزة مكسورة فصار: إيواباً. الدر المصون ١٠/ ٧٧٤.

بالتسهيل، وواوٌ وهي عينُ الكلمة، وإحداهما ساكنةٌ، فتُقلَبُ الواوُ ياءً وتُدغَمُ فيها الياءُ، فيصير إِيَّاباً[1]، فلا تغفل.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ في المحشر، لا على غيرنا، و«ثم» للتراخي الرُّتْبي لا الزماني؛ فإنَّ الترتيبَ الزمانيَّ بين إيابهم وحسابهم، لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه سبحانه، فإنهما أمران مستمرَّان.

وفي تصدير الجملتين بـ «إنَّ»، وتقديمِ خبرها، والإتيانِ بضمير العَظَمة، وعَطْفِ الثانية على الأولى بـ «ثم» المفيدةِ لِبُعْدِ منزلة الحساب في الشِّدَّة، من الإنباء عن غاية السُّخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفى.

وفي الآية ردٌّ على كثيرٍ من الشيعة حيثُ زعموا أنَّ حساب الخلائق على الأمير كرم الله تعالى وجهه، واستدلُّوا على ذلك بما افتروه عليه وعلى أهل بيته ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ من الأخبار. ومعنى قوله كرم الله تعالى وجهه: أنا قسيمُ الجنة والنار ـ إن صحَّ ـ أنَّ الناسَ من هذه الأمة فريقان؛ فريقٌ معي فَهُمْ على هُدًى، وفريقٌ عليَّ فَهُمْ على ضلال، فقِسْمٌ معي في الجنة، وقِسْمٌ في النار، ولعلَّهم عنَوا أنَّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه يُحاسِبُ الخلائقَ بأمره عزَّ وجلَّ كما يقول غيرهم بأنَّ الملائكةَ عليهم السلام يحاسبونهم بأمره جلَّ وعلا، وهو معنى لا ينافي الحصرَ الذي تقتضيه الآية، لكنه لم يثبت، وأيُّ خصوصيةٍ في الأمير كرم الله تعالى وجهه من بين جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين عليهم الصلاة والسلام أجمعين تقتضيهِ؟! ولا نَقْصَ له كرم الله تعالى وجهه في نفي ذلك عنه، ويكفيه رضي الله عنه من ظهور شَرَفه يوم القيامة أنه يُزَفُّ إلى الجنة بين النبيِّ وإبراهيم عليهما وعليه الصلاة والسلام كما جاء في الحديث[2]، إلى غير ذلك مما يظهر في ذلك اليوم والله تعالى أعلم.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثامن والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء التاسع والعشرون ويبدأ

بسورة الفجر

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦٥.

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة ٧/ ٢٥٤ وقال: هذا لا أصل له، وهو كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث.